أصدقاء ناجي نعمان

Les amis de naji Naaman

los amigos de naji naaman

naji naaman's friends

د. فارس عيد

مجموعة

نظريَّة التَّأثير النِّسبيَّة

الكتابُ السَّادس

الحقيقة والخيال في السِّحر وقراءة الغيب وتحضير الأرواح

الإيمـــان

دار نعمان للثقافة

د. فارس عيد

من مواليد بلدة مزرعة الضَّهر (الشُّوف – لبنان) عامَ ١٩٤٠، متأهِّل، وله أربعة أولاد. حائزٌ إجازةً في العلوم الفيزيائيَّة من كلِّيَّة العلوم في الجامعة اللُّبنانيَّة (١٩٦٢)، فدكتوراه في الاختِصاص عَينه من جامعة السُّربُنّ بباريس (١٩٦٦). أستاذ مادَّة الفيزياء في الجامعة اللُّبنانيَّة بين عامَي ١٩٦٦ و٢٠٠٥، رَئِسَ قسمَ العلوم والرِّياضيَّات في كلِّيَّة التَّربية لأكثر من عشرة أعوام، ومثَّلَ الأساتذة في الكلِّيَّة المذكورة لأكثر من عشرة أعوام.

أوَّل مَن ألَّفَ وأصدرَ كتبَ فيزياء للصُّفوف الثَّانويَّة مُطابِقَة للبرامج الوطنيَّة (منذ ١٩٦٧). أطلقَ "نظريَّة التَّأثير النِّسبيَّة" في حقل الماورائيَّات وعلم النَّفس، وله، فيها، عدَّة مؤلَّفات: نظريَّة التَّأثير النِّسبيَّة؛ الإنسان في نظريَّة التَّأثير النِّسبيَّة؛ تفسير الأحلام العلميّ؛ دور الأثر في نشوء الإنسان؛ الله الكمالُ المُطلَق.

الدُّكتور فارس عيد، في كتابه السَّادس من ضمن "نظريَّة التَّأثير النِّسبيَّة"، يسوحُ بنا في عالَم السِّحر وقراءة الغَيب وتحضير الأرواح، موضحًا لنا نسبةَ الحقيقة في ما نظُنُّ في هذه الأمور، ونذهبُ إليه، ونسبةَ الخَيال. وهو، بالعلم، ولاسيَّما الفيزياء، يُبَرهِنُ الكثيرَ من جَهالاتِنا وانسياقاتِنا لجهة الخيال، وابتعادَنا عن الحقيقة، ومعها الإيمان.

ولَشَدَّ ما كان اندهاشي إذ أدركتُ أنِّي، في كتابات سابقة لي، وصلتُ أدبًا وفكرًا إلى ما وصلَ إليه الدُّكتور عيد، علمًا. ولكن، مَن قال إنَّ الأدبَ المُرتَكِزَ أصلاً على الخيال، والفكرَ المُرتَكِزَ على المَنطِق، بالعلم لا يلتقيان؟

ناجي نعمان

مدخَل

ما كتَبنا ليس بموضوعٍ فلسفيٍّ أو أدبٍ خياليّ، وإنَّما بحثٌ عمليٌّ يحلِّلُ السِّحرَ ويُغَربلُه ليفصلَ فيه ما بين الحقيقة والخيال.

وعليه، فنحن نستعرضُ في هذه الدِّراسة السِّحرَ وقراءةَ الغَيب وتحضيرَ الأرواح بمفهومها العَملانيِّ الشَّائع، وعلى نحوٍ عامّ، من دون الغوص في تفاصيلها وطقوسها لأنَّ الاسترسالَ في هذه المواضيع يتعدَّى الغرضَ الَّذي توخَّيناه.

وكان لا بدَّ لنا كما درَجنا عليه في السَّابق، أن نقومَ في الفصول الأولى بتحديد بعض المَفاهيم والمُفردات الَّتي سنَسوقُها في بحثنا كي لا تلتَبِسَ الأمورُ على القارئ.

فورَدَ في الفصل الأوَّل معنى الوجود؛ وفي الفصل الثَّاني تحديدُ الفِكر الإنسانيِّ وعملُه؛ وفي الفصل الثَّالث تحديدُ الحاسَّة السَّادسة؛ وفي الفصل الرَّابع تحديدُ الحقيقة والخيال؛ وفي الفصل الخامس تحديدُ الوَحي والإيحاء؛ ووَرَدَت في الفصل السَّادس كلمةٌ عن الأحلام؛ أما في الفصول، السَّابع والثَّامن والتَّاسع والعاشر والحادي عشر، فجَرى استعراضٌ لأنواع السحر؛ فيما، في الفصول الباقية، أُلقِيَت نظرةٌ على بعض المواضيع الَّتي تطولُ السِّحرَ والطِّبَّ والدِّين.

المؤلِّف

المقدِّمة

كثيرًا ما صادفَ الإنسانُ، قديمًا، بعضَ الظَّواهر والوقائع الَّتي يُمكنُنا وصفُها اليومَ بالعاديَّة والمَألوفة؛ لكنَّه، آنذاك، وبسبب جهل مُسَبِّباتها، أقدمَ على تفسيرها تفسيرًا عفويًّا أدخلَ من خياله على بعض جوانبها المُعتمَة تصوُّراتٍ غريبةً، فجعلَها غائمةً معقَّدة. وإذ تعاقبَ الَّذين اهتمُّوا بها لاحقًا، أخذَ كلٌّ منهم يَدلو بدَلوه في تفصيلها وشرحها، فزادَت غباشةً وتعقيدًا.

وكان لا بدَّ لنا أن نتوارثَها وأن نأخذَ بها، بوَعيٍ أو من دون وَعي، كحقيقةٍ يصعبُ التَّخَلِّي عنها. فعفويَّةُ الإنسان تأبى عليه أن يعتنقَ بسهولةٍ غيرَ ما اعتنقَه أسلافُه وآلُه إلاَّ إذا كان الجديدُ مقنعًا وملائمًا أو مُلزمًا.

السِّحرُ والدِّينُ هما من هذه الأمور المتناقَلَة والَّتي جذبت اهتمامَ الشُّعوب في فترات خاصَّة من التَّاريخ، وما زالت تجذبُها حتَّى يومنا هذا. فقد آمنَ النَّاس قديمًا بعددٍ من الآلهة وأنصاف الآلهة وبالسِّحر على أنواعه والسَّحَرَة على أنواعهم. ثمَّ أتى مَن بدَّلَ هذه المعتقدات بجديدة أو زادَ عليها بعضَ العناصر الَّتي جعلَتها أكثر ملائمةً مع تطوُّر الإنسان. ونقولُ إنَّ اليومَ الَّذي سنتخلَّى فيه عن كلِّ هذه الأوهام ونلتزمُ بالحقيقة أصبح قريبًا.

ولكن، أيّ حقيقة هي تلك التي نتحدَّثُ عنها.

فَلْنَقُمْ برحلة معًا إلى دنيا الغرائب والعجائب؛ لربَّما تتوضَّحُ لنا بعضُ الوقائع، وتكشفُ لنا عن أسرارها فتنقشع أمامنا الحقيقة.

د. فارس عيد

الفصلُ الأوَّل
في الموجودات

١- في الخاصِّيَّة والصِّفة

الخاصِّيَّة هي ما يخصُّ شيئًا ما، والشَّيءُ يُعرَفُ بها. فالسَّماء شيء، وهي تُعرف بخاصِّيَّة اللَّون الأزرق المَعروف بها. والكرة شيءٌ آخرُ، وتُعرف بخاصِّيَّة الشَّكل الكرويّ، والزَّيت شيءٌ ثالث، ويُعرف بخاصِّيَّة السُّيولة اللَّزِجَة.

وخاصِّيَّة شيءٍ ما تؤثِّر في الأشياء الأخرى الموجودة في محيطها إذا تمَّتِ الشُّروط والظُّروف الملائمة، وهي تؤثر على نحوٍ خاصٍّ في الإنسان لتتركَ من ذاتها أثرًا في ذاكرته. فالسَّماء تركت في ذاكرته لونَها الأزرق، والكرة الباردة تعطي من برودتها الأشياءَ المتَّصِلَةَ بها، والزَّيت يعطي من لزاجته السَّطحَ الَّذي غطَّاه.

والخاصِّيَّة لا تُعرف إلاَّ إذا أثَّرت. وعندما تؤثِّر في الإنسان تُعرَف بـــ "الصِّفة". والفرقُ بين الخاصِّيَّة والصِّفة يصبح واضحًا: فالخاصِّيَّة تخصُّ شيئًا ما، وأمَّا الصِّفة فهي الخاصِّيَّة المؤثِّرة بين شيئَين. الخاصِّيَّة مُطلَقَة للشيء، وأمَّا الصِّفة فتنسب إلى الشَّيء المؤثِّر والشَّيء المتأثِّر. فقد يكون التَّأثير مختلفًا بين شيءٍ وشيءٍ آخر: فكرةٌ متدحرجةٌ (خاصِّيَّة) تصيبني فتؤلمني (تأثير)، وقد تصيب كرة أخرى متوقِّفة فتحرِّكها (تأثير مختلف) وقد تصيب لوحًا زجاجيًّا فتكسره (تأثير آخر مختلف).

وإذ نلاحظ أنَّ الصِّفة تتغيَّر، ندرك أنَّ الخاصِّيَّة المتعلِّقة بها تتغيَّر هي الأخرى. فقد نرى عند الأصيل لون السَّماء يميلُ إلى الاحمرار، وذلك لأنَّ خاصِّيَّة لون السَّماء الأزرق قد تغيَّرت. فالخاصِّيَّة تتغيَّر.

٢- في الشَّيء

الشَّيءُ مجموعةُ خاصِّيَّات مرتبطة ومستمرَّة معًا بارتباطها. فالتفَّاحة الَّتي قدَّمَتها لي ابنتي تجمعُ اللَّـــون والشَّكل والرَّائحة والحجـــم والنَّضارة وغيرها من الخاصِّيَّات،

وهذه لا تنفصلُ واحدتُها عن الأخرى: فعندما تُنقل التُّفَّاحة من مكانٍ إلى آخرَ تبقى كلاًّ مرتبطًا. وأمَّا لون التُّفَّاحة وسطح المنضدة الَّتي كانت عليها فينفصلُ واحدُهما عن الآخَر لأنَّهما غير مرتبطَين. الشَّيء يتغيَّر عندما تتغيَّر إحدى خاصِّيَّاته.

٣- مجموعة أشياء

مجموعةُ أشياء هي أشياء مرتبطة في ما بينها عن طريق شيءٍ لا ينتمي إلى المجموعة يُطلقُ عليه اسم الرَّابِط أو الجامِع المُشتَرَك. فالأشياء الموجودة على طاولة هي مجموعة تشتركُ بوجودها على تلك الطَّاولة؛ والطَّاولة تصبح الرَّابِطَ لهذه المجموعة. والمجموعة تتغيّر عندما تتغيّرُ إحدى وَحداتها (أو أكثر)، أو عندما يتغيَّر الرَّابِطُ المُشتَرَك.

٤- الحَدَث

نعني بالحَدَث كلَّ تغييرٍ يصيب صفةً ما (أو خاصِّيَّة ما) من صفات شيءٍ ما أو مجموعة أشياء. فالتواءُ سلكٍ حدثٌ أصاب صفةَ (أو خاصِّيَّةَ) الشَّكل في السِّلك، وانفصالُ عضوٍ من جسم إحدى السّحليَّات تغيُّرٌ أصاب صفةَ الكلِّ المعروفة بها تلك السّحليَّة، وتظاهرة شعبيَّة حدثٌ أصاب مجموعة البشر الموجودين في مكانٍ معيَّن.

٥- الحالَة

الحالة مجملُ صفات شيءٍ ما (أو مجموعة أشياء) في وقتٍ معيَّن. والحالة خاصِّيَّةٌ للشَّيء (أو المجموعة). والحالة ليست مُطلقةً بمعنى أنَّها ليست هي هي لكلِّ مَن استعرضَها. فهي تتعلَّق بالشَّيء كما تتعلَّق بالنَّاظر المتأثِّر بها على طريقته، وتتعلَّق كذلك بالوقت المَعنِيّ. وعليه، فحالة شيءٍ ما تُنسَبُ إلى ذلك الشَّيء، وتُنسَبُ إلى النَّاظر إليه، كما تُنسَبُ إلى الوقت الَّذي حُدِّدت به.

٦- الواقِع

الواقعُ هو حالةُ شيءٍ ما (أو مجموعة أشياء) تمَّ الاتِّفاق على تحديدٍ واحدٍ لها مِن كَمٍّ من النَّاس، أو الَّتي قد يتَّفق عليها هذا الكَمُّ من النَّاس.

والواقع يكون نسبيًّا أي أنَّه يتعلَّق بالشَّيء (أو المجموعة)، وبذلك الكَمّ، كما يتعلَّق بالوقت الذي حُدِّد به. ويكون مُطلقًا إذا تمَّ الاتِّفاق عليه من كلِّ النَّاس، وفي كلِّ الأوقات. فالشَّمس واقعٌ مُطلَق. فكلُّ النَّاس يُقرُّون ويعترفون، اليومَ كما في الأمس، بأنَّ هناك جرمًا سماويًّا مُشِعًا يُرسلُ نورَه وحرارتَه إلى الأرض فيدفِئُها.

٧- الحقيقة

الحقيقة هي كلُّ واقع مُطلَق تمَّ الاتِّفاق عليه. والحقيقة تُنعَت بالجزئيَّة إذا تعلَّقت ببعض خاصِّيَّات شيءٍ ما أو مجموعة من الأشياء أو حالةٍ ما، وتُنعَت بالكاملة إذا تعلَّقت بكلِّ خاصِّيَّات هذا الشَّيء أو تلك المجموعة أو الحالة.

فالدّيناصور حيوانٌ حقيقيٌّ لأنَّه ترك خاصِّيَّةً مُطلَقة (عظامه). ولكنَّ الكثير من خاصِّيَّاته الباقية تبقى فَرَضيَّة كونها لم تترك أثرًا. وأمَّا التِّنِّين فهو حيوان فَرَضيٌّ غيرُ حقيقيٍّ لأنَّه لم يتركْ أيَّ أثرٍ مُطلَق. وعليه، سنحدِّد الحقيقةَ على نحوٍ عامٍّ ككلِّ وجودٍ سابقٍ تركَ أثرًا باقيًا مُطلَقًا، وكلِّ وجودٍ حاضرٍ مُطلَق، وكلِّ ما مضى ولم يتركْ أثرًا أو كلِّ وجودٍ حاضرٍ غيرِ مُطلَقٍ يدخلُ في الفَرَضيَّة (غير حقيقيّ).

ونُشيرُ إلى أنَّ الكلمة لا تؤلِّف أثراً كونها لا تخصُّ الشَّيء. فقد يكتب أحدُهم عن شخصيَّة خياليَّة أو إخباريَّة غيرِ صحيحةٍ عن إحدى الشخصيَّات المعروفة، إنَّما هذا لا يعني أنَّ تلك الشَّخصيَّة الخياليَّة أو تلك الإخباريَّة الكاذبة هي حقيقة على الرَّغم من أنَّ الكلمة بحدِّ ذاتها هي حقيقة مُطلَقة، ولكنَّها، كخاصِّيَّة، تتعلَّق بصاحبها كونها تؤلِّف أثرًا له، لا لمَن تكلَّم عليه.

٨- المادَّة

المادَّة هي كلُّ ما يمكنُ أن يؤثِّر في ويتأثَّر بـــ، وأن يوجدَ كشيءٍ مستقلّ. فالمادَّة هي كنهُ الأشياء. فالكرسيُّ مادَّة لأنَّها تتأثَّر وتؤثِّر وتوجدُ كشيءٍ مستقلّ. وأمَّا النُّور، فعلى الرَّغم من أنَّه يتأثَّر ويؤثِّر، فهو لا يوجدُ كشيءٍ مستقلّ: النُّورُ تأثيرٌ صادرٌ عن شيءٍ مادِّيّ. والصَّوت والتَّموُّجات والأحلام والخيال ليست موادَّ كذلك، إنَّما تأثيراتٌ صادرةٌ عن موادّ. فالصَّوت نتيجة تذبذباتِ الهواء المادِّيِّ والأحلام نتيجةَ تأثُّر الدِّماغ المادِّيّ، وكذلك الخيال.

٩- التَّأثيرُ المادِّيّ

التَّأثيرُ كعمليَّةٍ هو تغيير شيءٍ مادِّيٍّ من قبل شيءٍ مادِّيٍّ آخر. الأوَّلُ يُقالُ له المؤثِّر، والثَّاني المتأثِّر: فَكُرَةٌ متحرِّكةٌ تُطلقُ كرةً ثابتةً إذا ارتطمَت بها؛ فنقول إنَّها أثَّرت فيها أو إنَّها غيَّرتها من كرةٍ ثابتةٍ إلى كرةٍ متحرِّكة. والمصباح يضيءُ الغرفة؛ أي أنَّه يؤثِّر في الغرفة، فيغيِّرُها من غرفة مظلمة إلى غرفة مضاءة.

والفنَّان الَّذي برع في ناحية معيَّنة من فنِّه يؤثِّر في فنَّان ناشئ؛ أي أنَّه يغيِّرُه من فنَّان عاديٍّ إلى فنَّان قد يبرعُ هو أيضًا في تلك النَّاحية.

ويُقال في التَّأثير أيضًا الخاصِّيَّة المنتقِلة من الشَّيء المؤثِّر نحو الشَّيء المتأثِّر. ففي الأمثلة السَّابقة تصبح الحركةُ التَّأثيرَ المنتقلَ من الكرة المتحرِّكة نحو الكرة الثَّابتة، والضَّوءُ التَّأثيرَ المنتقلَ من المصباح نحو أرجاء الغرفة، والفنُّ الَّذي برع فيه الفنَّان الأوَّل التَّأثيرَ المنتقلَ منه نحو الفنَّان النَّاشئ.

١٠- الوجود

نقول إنَّ شيئًا موجودٌ بالنِّسبة إلى شيءٍ آخرَ إذا أثَّر فيه؛ وإنَّه غير موجود بالنِّسبة إلى شيءٍ ثانٍ إذا لم يؤثِّـــر فيه. ويصبح الوجود بذلك نسبيًّا، أي يُنسب إلى الشَّيء

الَّذي أثَّر وإلى الشَّيء الَّذي تأثَّر. ويكون الوجود مطلَقًا، وبالتَّالي، حقيقيًّا، إذا كان منسوبًا إلى كلِّ الأشياء أو إذا كان في الإمكان أن يُنسَب إلى كلِّ الأشياء.

فالمواطن الكونغولي يوجدُ بالنِّسبة إلى أيِّ مواطنٍ كونغوليٍّ آخر عرفَه. وأمَّا بالنِّسبة إليَّ فهو غير موجود لأنِّي لا أعرفُه ولا أشعرُ بوجوده. فوجودُه هو وجودٌ نسبيٌّ فَرَضيٌّ وغيرُ حقيقيّ؛ ولكن، إذا أمكنَ لكلِّ النَّاس التَّعرُّف عليه مباشرةً أو غير مباشرة عبر التِّلفاز مثلاً، لأصبحَ وجودُه مُطلَقًا وحقيقيًّا.

١١- هل هناك تأثيرٌ لامادِّيّ؟

إنَّ التَّأثير الَّذي ذكرنا سابقًا هو تأثيرٌ يطولُ المادَّة كمصدرٍ وكالتِقاط؛ وهو يتعلَّق بها، أي بالمادَّة، ويؤلِّف، بالتَّالي، ميزةً لها. ولذا، يُمكننا أن نصفَه بالتَّأثير المادِّيّ.

ولكن، هل هناك من تأثيرٍ لامادِّيّ؟

نحن البشر لا نعرفُ من التَّأثيرات سوى تلك المادِّيَّةِ أي الصَّادرةِ عن المادَّة. وقد تكون هناك تأثيراتٌ لامادِّيَّة مثل تأثيرات عَدَميَّة أو روحانيَّة. ولكنَّ هذه التَّأثيرات لا تطولُنا ولا تؤثِّرُ فينا، ولا يمكنُ أن توجدَ بالنِّسبة إلينا، وبالتَّالي لا يمكنُ التَّعاملُ معها أو معرفتُها. ولو كانتِ الأمورُ عكس ذلك لكانتِ العلاقةُ بين المادَّة واللاَّمادَّة قد توضَّحت وأصبحت خبزًا يوميًّا، ولكان أصبح وجودُها حقيقيًّا.

فالملاك الَّذي تتكلَّمُ عليه الأديان السَّماويَّة لا وجودَ مُطلَقًا (مادِّيًّا) له؛ لذا، فهو يدخل في الفَرَضيَّة، وقد يقالُ إنَّ البعض تأثَّر به. وقد يكونُ هذا صحيحًا، ولكنَّه يبقى فَرَضيًّا، إذ إنَّ هذا البعض لا يمثِّلُ الكلَّ المطلوبَ لإعطائه صفةَ الحقيقة.

الفصلُ الثاني
في الفِكر والعَقل والإدراك

١- حواسُّ الإنسان

التَّأثيرات الخارجيَّة (خارج جسم الإنسان) متنوِّعة ومتميِّزة، وهي تصلُ الجسمَ الإنسانيَّ من كلِّ نواحيه. بعضُها يصلُ الخلايا اللاَّقِطَة مباشرةً كتأثيرات الحرارة، وبعضُها الآخر يصلُها على نحوٍ غير مباشر عبر محوِّلات عضويَّة خاصَّة، كتأثيرات الضَّوء الَّتي تدخل عدسةَ العين قبل أن تصلَ إلى شبكتها، أو تأثيرات الصَّوت الَّتي تدقُّ طبلةَ الأذن قبل أن تدخلَ الأذن الدَّاخليَّة حيث الأعصابُ اللاَّقِطَة. وعندما تلتقطُ الخلايا التَّأثيرات الواردة تتأثَّرُ وتصدرُ عنها شحناتٌ كهربائيَّةٌ معقَّدة بطبيعتها وبقوَّتها وبنوعيَّتها. وتنتقلُ هذه الشّحنات إلى الدِّماغ مباشرةً أو إلى الحبل الشَّوكيِّ عن طريق خلايا ناقلة تؤلِّف أليافًا عصبيَّةً، ومنه إلى الدِّماغ.

والحاسَّةُ جهازٌ يتألَّف من عضوٍ معيَّنٍ فيه خلايا لاقِطَةٌ تأثيراتٍ خاصَّةً، ومن خلايا ناقِلَةٍ تلك التَّأثيرات. وبذلك تصبحُ الحاسَّةُ واسطة نقل تربطُ الدِّماغ بمحيطه الخارجيّ. وتختلفُ الحواسُّ باختلاف التَّأثيرات الواردة إليها. ولقد تطورت لدى الإنسان خمسُ حواسّ معروفة:

- حاسَّة النَّظر المتعلِّقة بتأثيرات الضَّوء، وعضوُها العين.
- حاسَّة السَّمْع المتعلِّقة بذبذات الهواء (الصَّوت)، وعضوُها الأذن.
- حاسَّة الشَّمّ المتعلِّقة بالرَّائحة، وهي جزيئات الموادّ المنتشِرَة في الهواء، وعضوُها الأنف.
- حاسَّة الذَّوق المتعلِّقة بتأثيرات الموادّ الكيماويَّة، وعضوُها الأساسيُّ اللِّسان.
- حاسَّة اللَّمس المتعلِّقة بتأثيرات الموادّ الفيزيائيَّة (الحرارة – السُّيولة – الصَّلابة...)، وعضوُها الجلد.

كما يمكن أن توجدَ عند الإنسان حواسٌّ أخرى ما زالت في أوائل تطوُّرها أو حواسٌّ وصلت إلى نهايتها لعدم الحاجة إليها. ومنها، على نحوٍ خاصّ، الحاسَّة السَّادسة الَّتي سيُجرى البحثُ فيها في فصلٍ لاحق.

٢- الدِّماغ

الدِّماغ هو كتلة لَحميَّة مؤلَّفة من خلايا متخصِّصة يحتضنُها الرَّأس ضمنَ الجمجمة ذات السَّماكة الملحوظة، والَّتي تطوَّرت على هذا النَّحو، لحمايته من الأذى كونه الجزء الأساسيّ للإنسان. والدِّماغ يتألَّف من مركز وذاكرة إدراكيَّة واعية وذاكرة غريزيَّة.

٣- الذَّاكرة الإدراكيَّة

الذَّاكرة الإدراكيَّة هي الجزء الأكبر من الدِّماغ (المخّ). وهي شبه مقسومة إلى قسمَين، وتتألَّف من ملايين الخلايا المتخصِّصة الَّتي تتميَّز عن غيرها من الخلايا بذيل طويل وبعض الاستيطالات والنّتوءات الَّتي تؤلِّف ما نسمِّيه بالشُّعَيرات. وهذه الخلايا، ككلِّ الخلايا الحيَّة، تتهيَّج عندما يصلُها تأثيرٌ معيَّن؛ وتبقى في تهيُّجها مدَّةً تتفاوت بقصرها أو طولها بحَسَب قوَّة التَّأثير. وعندها يتغيَّرُ محتواها الكيميائيّ وتتغيَّر شُعَيراتُها باتِّجاهاتها أو باستطالتها، وعندما تخبو تعودُ إلى حالتها الطَّبيعيَّة إلا إذا تمَّ تثبيت تغييراتها من قبل المركز (أنظر المركز في ما يلي)، فتُبقى عندها على تلك التَّغييرات.

ولتسهيل فهم ما يجري من أمور معقَّدة داخل الذَّاكرة، سنكتفي بالإشارة إلى أن كلَّ تأثير يطرقُ بابَ الحواسّ يطرقُ تأثُّره الخلية الذَّاكريَّة عينَها.

٤- المركز

المركز هو جزء صغير جدًّا من الدِّماغ، يوجدُ في أسفل الرَّأس من الجهة الخلفيَّة. وهو محور الإنسان، بمعنى أنَّه هو كلّ الإنسان، وما تبقَّى من الدِّماغ وباقي الجسم ليس إلا مجموعة أدوات تعمل لحمايته وتغذيته وتواصله بالعالم الخارجيّ.

يتبلَّغ المركز الشّحنات الكهربائيَّة من الخلايا الذَّاكريَّة المتهيِّجَة أوَّلاً بأوَّل، وبحَسَب وصولها الزَّمنيّ، وذلك عن طريق عصب وحيد يربطه بالذَّاكرة الإدراكيَّة، وبسرعة فائقة؛ ثمَّ يعمل على تثبيت هذه الشّحنات والتَّأثيرات المتعلِّقة بها في تلك الخلايا، وذلك بضخِّ موادَّ خاصَّةً تفرزُها إحدى الغدد بأمرٍ منه. أي إنَّ الخلايا المتهيِّجَة باستِطالات شُعيراتها وبتغيير اتِّجاهاتها، والَّتي يتمُّ الاتِّصالُ في ما بينها وبين المركز، تتثبَّتُ فيها تلك التَّغييرات عن طريق إفرازات الغدَّة المَعنيَّة؛ ولا يمكنها بعد ذلك العودة إلى حالتها الأولى.

وأمَّا الخلايا الَّتي تتهيَّج ويخبو هيجانُها قبل أن يتمَّ الاتِّصال في ما بينها وبين المركز، فلا تطولُها الإفرازات، وبالتَّالي، لا تتثبَّت فيها التَّأثيرات، فتعودُ إلى حالتها الأولى.

٥- السَّلاسل الذَّاكريَّة

الخلايا المتأثِّرة والمثبتة من قبل المركز في الوقت الواحد تتلامسُ شُعيراتُها باستِطالاتها المستحدثة أو بتغيير اتِّجاهاتها، فتؤلِّف طريقَ انتشارٍ لمجموعة التَّأثيرات الوافدة والمتعلِّقة بإحداثيَّة معيَّنة. وهذه الطَّريق تمثِّلُ ما نُطلق عليه سلسلةً ذاكريَّةً أو سلسلةً تَذَكُّريَّة.

فإذا رأيتُ في أحد الأيَّام سيَّارةً حمراءَ يصدحُ مِذياعُها بصوت أغنية للسَّيِّدة فيروز، لَتَثَبَّتَت في ذاكرتي تأثيــراتُ السَّيَّارة واللَّــون الأحمر والمِذياع والصَّوت الصَّادح

وأغنية السَّيِّدة فيروز والسَّيِّدة فيروز، كلٌّ في خلية، ولألَّفت كلُّ هذه الخلايا سلسلةً ذاكريَّة.

والسِّلسلة لا تحتوي على كلِّ الخلايا الَّتي تهيَّجت في الوقت ذاته، إذ قد لا يستطيع المركز الاتِّصالَ بالكثير منها وتثبيت التَّأثيرات فيها قبل أن تخبو، على الرَّغم من سرعته الفائقة.

والتَّأثير الواحد المتعلِّق بخاصيَّة معيَّنة يطرقُ دائمًا الخليةَ عينَها. وقد يحتوي حدثان الخاصيَّةَ نفسَها فيشكِّلان في الذَّاكرة سلسلتَين متقاطعتَين عن طريق الخلية التَّابعة تلك الخاصيَّة.

فإذا زرتُ يومًا آخرَ من أيَّام الصَّيف اللاَّهِبَة صديقًا كان يستمعُ إلى أغنية السَّيِّدة فيروز عينِها لانطبَعَت في ذاكرتي سلسلةٌ جديدة، ولتقاطعت مع السِّلسلة السَّابقة المتعلِّقة بالسَّيَّارة الحمراء بخلية أغنية السَّيِّدة فيروز. والقتيلُ الَّذي سقط وسالت دماؤه في مشهدٍ من فيلمٍ سينمائيٍّ كنتُ أشاهدُه على التِّلفاز يشكِّلُ بدوره سلسلةً ثالثةً تتقاطعُ مع الأولى بخلية الاحمِرار.

٦- في الصُّورة العقليَّة أو الفكريَّة

الصُّورة العقليَّة هي ناتجُ التَّأثيرات الَّتي تصلُ المركزَ من بعض الخلايا الذَّاكريَّة المهيَّجَة في وقتٍ معيَّنٍ واحد، إن مباشرةً عن طريق الحواسّ، أو غير مباشرة عن طريق السَّلاسل التَّذَكُّريَّة. ففي المثال السَّابق المتعلِّق بالسَّيَّارة الحمراء، فقد كانت الصُّورة العقليَّة نتاجَ السِّلسلة الذَّاكريَّة الَّتي انطبَعَت مباشرةً في ذاكرتي، وقد تتهيَّجُ لاحقًا إحدى خلايا هذه السِّلسلة لسببٍ ما، قُلْ مثلاً عندما يذكرُ أمامي أحدهم قميصًا حمراء اشتراها حديثًا، فتتهيَّج خلية الاحمرار وتهيِّج كلَّ الخلايا المرتبطة بها، ومن بينها سلسلة السَّيَّارة الحمراء، فتعطيني الصُّورةَ العقليَّةَ عينَها مع بعض التَّعديلات.

٧- الذَّاكرة الغريزيَّة

تتركز الذَّاكرة الغريزيَّة في المُخَيخ، وهي مؤلَّفة من خلايا متأثِّرة ومثبتة عند الولادة؛ وهي، أي الذَّاكرة، مسؤولةٌ عن ردَّات فعل الإنسان غير الإدراكيَّة الَّتي تؤمِّن له الحماية والاستمرار في حالات خاصَّة. والمعروف أنَّ هذه الذَّاكرة غير متَّصلة بالمركز ممَّا يجعل ردَّات فعلها لاواعِيَة. ولكن قد تتَّصل به بطريقة غير مباشرة عن طريق التَّعلُّم كما سنرى لاحقًا.

٨- الوَعي

الوَعي هو الحالة الَّتي يكون فيها الاتِّصال تامًّا في ما بين جميع الخلايا اللاَّقطة والمنبِّهة، والذَّاكرة، ثمَّ بين الذَّاكرة والمركز؛ أي الحالة الَّتي يمكن أن ينتقلَ فيها أيُّ تأثير خارجيّ إلى المركز عبر الحواسّ والذَّاكرة.

ويُفقد الوَعي جزئيًّا عندما تتعطَّل بعضُ الخلايا اللاَّقطة (راحة تامَّة – إزعاج – تَلَف – تخدير)، أو عندما تتعطَّل الخلايا الموصلة بين الحواسّ من جهة والذَّاكرة والمركز من جهة ثانية، أو عندما تتلف بعض خلايا الذَّاكرة.

ويُفقد الوَعي كلِّيًّا عند انقطاع الاتِّصال بالمركز، وذلك إمَّا لاسترخاء عصب الاتِّصال الوحيد بالمركز (تخدير – تَلَف)، أو عند استراحة المركز (النَّوم)، وإمَّا بشَلِّ نشاط الأعصاب الموصلة (تخدير كلِّيّ)، أو لأيِّ سبب آخر مُشابه.

وعند افتقاد الوَعي تحصلُ حالةُ اللاَّوَعي؛ أي أنَّ اللاَّوَعي هي الحالة الَّتي يكون فيها الاتِّصالُ مقطوعًا بين المركز وباقي أقسام الدِّماغ.

٩- التَّذَكُّر

التَّذَكُّر بالنِّسبة إلى خلية مطبوعة سابقًا بتأثير ما، هو إعادةُ تهييج هذه الخلية بإثارتها مجدَّدًا من قِبَل خلية أخرى تؤلِّف معها جُزءًا من سلسلةٍ ذاكريَّة.

والتَّذكُّر بالنِّسبة إلى وصلة ذاكريَّة هو إعادة تهيُّج جميع خلايا هذه الوصلة لمجرَّد إثارة إحدى خلاياها الَّتي يُقال لها مفتاح التَّذكُّر. ففي المثل السَّابق رأينا كيف ارتبطت فكرة السَّيَّارة الحمراء بفكرة أغنية فيروز، فإذا حدث ورأينا شيئًا أحمرَ (مفتاح الشرك) لتأثَّرت خلية الاحمرار ولأثَّرت معها خلية السَّيَّارة الحمراء، وبعدها خلية أغنية السَّيِّدة فيروز.

والمعلوم أنَّ مفتاح تذكُّر معيَّن لا يُطلق دائمًا السِّلسلةَ عينَها. فالذَّاكرة دائمةُ التَّجدُّد إن بخلاياها المتأثِّرة، وإن بوصلاتها، وإن بعمق الآثار الَّتي طبعتِ الخلايا؛ وبالتّالي، فالَّذي يقرِّر سلسلةً تذكُّريَّةً هي الخلايا الأكثر حساسية لهيجانها والأعمق أثرًا، قُلْ الخلايا المميّزة.

ولا بدَّ من أن نشير إلى أنَّ التَّذكُّر قد يكون واعيًا أو غير واعٍ تبعًا لكون الخلايا المتأثِّرة على اتِّصال بالمركز أو على غير اتِّصال به.
فالخلايا الذَّاكريَّة تستمرُّ بهيجانها حتَّى لو لم تكُن على اتِّصالٍ بالمركز.

وبهذا التَّحديد يصبح التَّذكُّرُ إعادةَ تكوين صورة عقليَّة شبيهة بالصُّورة أو الصُّوَر العقليَّة الَّتي تأثَّر بها المركز سابقًا. ولكن علينا أن نشدِّدَ على أنَّ هذه الصُّورة أو هذه الصُّوَر التَّذكُّريَّة تكون مشوَّهة، أي بعيدة بعض الشَّيء عن الصُّورة الحقيقيَّة ولأسبابٍ عدَّة، أهمُّها:

- عدم تهيُّج كلِّ السَّلاسل الَّتي تؤلِّف الصُّورة الحقيقيَّة.
- عدم تهيُّج كلِّ الخلايا المتعلِّقة بالسِّلسلة الواحدة.
- كون بعض التَّفاصيل لم يتمَّ طبعُها أو تثبيتُها عند أوَّل اتِّصال مع الصُّورة الحقيقيَّة.
- كون الصُّورة العقليَّة متحرِّكة مع أقلِّ تحرُّك لمِحورَ العين.

١٠- النّسيان

النّسيان هو سقوط إحدى الخلايا (أو خلايا عدَّة) من السَّلاسل التَّذكُّريَّة لأسباب مختلفة نوردُ منها الحالات الآتية:

- عند زوال أو اضمحلال التَّأثيرات من تلك الخلية بعامل الوقت وذلك لعدم إثارتها مجدَّدًا.
- عند انقطاع الاتِّصال بين تلك الخلية والخلايا الأخرى الَّتي تؤلِّف سلسلة تذكُّريَّة لانشغال تلك الخلايا في سلاسل ذاكريَّة أخرى جانبيَّة.
- عند إصابة هذه الخلية بالعجز، إذ تصبح غير قادرة على التهيُّج على نحوٍ كافٍ.
- عند انشغال المركز بخلايا أخرى أكثر تهيُّجًا.
- لأيِّ سبب آخر كالتَّخدير أو الاسترخاء.

وعند النّسيان يُفتقد التَّذكُّر الصَّحيح المتعلِّق بالسِّلسلة التي تؤلِّف الخلايا السَّاقطة جُزءًا منها.

١١- التَّعلُّم

التَّعلُّم هو تأثير الخلايا الذَّاكريَّة وجعلها متَّصلة بسلاسل متقاطعة.

والتَّعلُّم يأتي من إحدى نوافذ الاتِّصال بالعالم الخارجيّ حيث تنتشرُ التَّأثيرات المختلفة، أي عبر الحواسّ: فهناك التَّعلُّم بالنَّظر، والتَّعلُّم بالسَّمْع، والتَّعلُّم باللَّمس، وما إلى هنالك.

ويترسَّخ التَّعلُّم بتعميق الأثر في خلايا الذَّاكرة؛ وهذا يتمّ:

- أمَّا بالتَّعلُّم بالتّكرار.

- وأمَّا بالتَّعلُّم المَصحوب حيث يتعمَّق الأثرُ في الخلية عن طريق سلاسل عدَّة تتضمَّن تلك الخلية.
- وإمَّا بالتَّعلُّم بالبحث حيث يتعمَّق الأثرُ كلَّما وُجدَ جديدٌ يتعلَّق بالتَّأثير المطبوع بها.

والتَّعلُّم قد يكون صحيحًا أو خاطئًا، وذلك تبعًا لتطابق ارتباط الخلايا في السَّلاسل مع ارتباط الأشياء المؤثِّرة؛ والتَّعلُّم الخاطئ ينجم:

- عن عدم أمانة الحواسّ في نقل التَّأثيرات الصَّحيحة.
- عن نقل تأثيرات خاطئة بطريقة غير مباشرة.
- عن حالة غير سليمة لأعضاء التَّعلُّم (مركز – ذاكرة – خلايا موصلة).
- عن كون ظروف التَّعلُّم غير مؤاتية فتتشوَّش التَّأثيرات الصَّحيحة بتأثيرات جانبيَّة.

١٢- المعرفة

أن يعرفَ الإنسانُ عن شيء هو أن يكونَ قد تأثَّر به سابقًا، وأن يكونَ هذا الشَّيء قد ترك أثرًا ثابتًا في إحدى خلايا الذَّاكرة أو في أكثر من خلية واحدة.

وتصبحُ معرفةُ إنسانٍ شيئًا احتواءَ ذاكرة ذلك الإنسان على سلاسل ذاكريَّة متعلِّقة بذلك الشَّيء.

وتكون المعرفة بالشَّيء أوسع كلَّما كثرت السَّلاسل المتعلِّقة به؛ وبالتَّالي، كلَّما تشعَّبت الخلايا وتلاقت شُعيراتُها. وتكون المعرفة أعمق كلَّما عمقت الآثارُ في تلك الخلايا، أي كلَّما كثرَت واستطالَت تشعُّباتُها.

من ذلك، نرى أنَّ زيادة المعرفة وتعميقَها يتمَّان عن طريق التَّعلُّم؛ وتصبح المعرفة متعلِّقةً به، وتكون صحيحة أو غير صحيحة تبعًا له.

١٣- التَّفكير

التَّفكير هو عمليَّة ربط خلية ذاكريَّة معيَّنة بخلية أخرى غير مرتبطة بها أصلاً غن طريق سلسلة تذكُّريَّة مباشرة. وقد تكون مرتبطة بها، غير مباشرة، عبر سلاسل عدَّة متقاطعة.

فإذا طُلبت منِّي العلاقة بين اللَّون الأحمر (خلية أولى) والسَّيِّد نبيل (خلية ثانية) لغصتُ في عمليَّة تفكير تنطلق من اللَّون الأحمر للوصول إلى السَّيِّد نبيل، ولتذكَّرت، عن طريق سلسلة أولى، أنَّ اللَّون الأحمر هو لون سيَّارة كانت تصدح بأغنية السَّيِّدة فيروز، ولتذكَّرت عند هذا التَّقاطع سلسلةً أخرى مفادُها أنِّي سمعتُ هذه الأغنية عند أحد الأصدقاء في يومٍ صيفيٍّ حارّ، ولتذكَّرت، مرَّة أخرى، عند هذا التَّقاطع الجديد، أنَّ السَّيِّد نبيل أصابَه في يومٍ حارٍّ كهذا عارِضٌ صحِّيّ، نُقلَ على أثَره إلى المَشفى.

يظهرُ من ذلك أنَّ التَّفكيرَ هو اختصارُ سلاسل عدَّة متقاطعة بسلسلة واحدة مباشرة؛ أي استِحداث سلسلة جديدة، وأنَّ التَّفكير يبدأ بإثارة إحدى الخلايا بسبب داخليّ أو خارجيّ، لتؤثِّر هذه تباعًا على كلِّ الخلايا المرتبطة بها. وينتهي التَّفكير عند وصول التَّأثير أو التَّهيُّج إلى الخلية الأخيرة المعنيَّة.

وقد لا ينتهي التَّفكير لنقصٍ في السَّلاسل الذَّاكريَّة أو لسقوط سلسلة في النّسيان عند إحدى التَّقاطعات.

يتبيّن لنا من ذلك أنَّ التَّفكير هو صفة الذَّاكرة الزَّاخرة بالعِلم، أي بكثرة السَّلاسل وبعمق تأثيرها.

والتَّفكير قد يكون واعيًا، وقد يكون غيرَ واعٍ. فالتَّفكير الواعي هو الَّذي يثير المركزَ باستمرار، فينشط هذا عندئذٍ في العمليَّة، وذلك بإثارة بعض الخلايا المناسبة. وأمَّا التَّفكير غير الواعي فيتمُّ عندما يكونُ المركز في حالة استِرخاء (لاوَعي) إذ إنَّ الخلايا الذَّاكريَّة تبقى في حالة تهيُّج مستمرَّة إن كانت باتِّصال

بالمركز أو لم تكُن. وقد ينتج من هذا التَّفكير غير الواعي استحداثُ سلسلة جديدة. ولكنَّ هذه السِّلسلة تهمل إذا بقي المركز في استرخائه عندما تخبو خلاياها. وأمَّا إذا نشط المركز قبل أن يخبو هيجانُ تلك الخلايا فقد تتثبَّت تلك السِّلسلة نهائيًّا في الذَّاكرة. وهذا ما يحدثُ مثلاً في الحلم (أنظُر الفصلَ السَّادس).

ونُشير في هذا الإطار، إلى أنَّ التَّفكير اللاَّواعي المتعلِّق بذاكرة زاخرة بالعِلم هو تفكيرٌ منطقيٌّ إذ ينتقلُ التَّأثير تبعًا للخلايا الأعمق تأثُّرًا، وبالتَّالي، الأكثر احتمالاً لأن تكون جُزءًا من السِّلسلة الَّتي يُجري البحث عنها.

١٤- الفِكر

الفِكر هو مجموعة الأعضاء الَّتي قد تدخل في عمليَّة التَّفكير. ففي الفِكر الواعي هناك الذَّاكرة الإدراكيَّة والمركز، وفي الفِكر اللاَّواعي هناك فقط الذَّاكرة الإدراكيَّة الناشِطَة.

١٥- الفِكرة

الفِكرة عن شيء أو واقع أو حالة هي جملة السَّلاسل الذَّاكرية الَّتي تأثَّرت بصفات أو خاصِّيَّات ذلك الشَّيء أو ذلك الواقع أو تلك الحالة، على نحوٍ مباشر أو غير مباشر.

والفِكرة قد تكون بسيطةً إذا كانتِ السَّلاسل المتعلِّقة بها قليلة، وقد تكون عميقةً ومعقَّدة إذا كثرَت تلك السَّلاسل.

١٦- العقل

العقل هو الفِكر النَّاشط والواعي.

والعقل يُفتقد في حالة اللاَّوعي؛ وأمَّا الفِكر فلا.

١٧- الإدراك

نقول إنَّ الإنسان يدركُ شيئًا أو حالةً عندما يتأثَّر دماغُه على نحوٍ يُعطي صورةً فكريَّةً وافيَةً عن ذلك الشَّيء أو تلك الحالة. عندها تتكوَّن في الذَّاكرة مجموعةُ سلاسلَ متَّصلةٌ عن ذلك الشَّيء أو تلك الحالة.

ويصبح الإدراكُ بذلك نشاطَ الدِّماغ المدرك، ويُقال للإدراك أيضًا الفَهم.

ويكون الإدراكُ حسِّيًا إذا كانتِ التَّأثيرات المعنيَّة قد وصلتِ الدَّماغَ عن طريق إحدى الحواسّ (أو أكثر)؛ ويكون عقليًّا إذا كانت تلك التَّأثيرات داخليَّةً تذكُّريَّة؛ وهذا يعني أنَّ الإدراكَ يواكبُ التَّعلُّم.

وهنا يجب التَّمييز بين الإدراك الصَّحيح الَّذي يتعلَّق بنقل واقع الحال، والإدراك الخاطئ الَّذي ينقل واقعَ الحال بتشويهٍ عفويٍّ أو مقصود.

وأمَّا الاستيعابُ فهو إمكانُ الإدراك أو الفَهم.

١٨- التَّركيز الفِكريّ

التَّركيزُ الفِكريُّ هو انشغالُ المركز على نحوٍ مستمرٍّ بخلية ذاكريَّة أو مجموعة خلايا متهيِّجة على نحوٍ لا يعود قادرًا على التَّعامل مع التَّأثيرات الَّتي تَرِدُه من باقي الخلايا المتأثِّرة حسِّيًّا من الخارج أو تذكُّريًّا من الدَّاخل؛ فيتعطَّل دورُ هذه الخلايا ويصبح الإنسانُ غيرَ واعٍ على ما يدورُ حولَه من أمور، إلاَّ تلك الَّتي تمتُّ بصلةٍ إلى حالة انشغاله.

والتَّركيز على الذَّات أو التَّركيز الذَّاتيّ هو التَّركيز على حالة ذاتيَّة تُقلقُ صاحبَها أو تنغِّصُ عليه حياتَه.

فالقافزُ من علوٍّ إلى الماء قفزةً فنِّيَّةً يأخذُ الوقتَ الكافي لِيَستجمعَ قواه بالتَّركيز والتَّأمُّل قبل أن يقومَ بالقفز.

والتَّأمُّل هو نوع من التَّركيز الَّذي يأخذ فيه الفِكرُ مادَّةَ انشغاله من أمورٍ غيبيَّةٍ أو أمورٍ ماورائيَّةٍ من دون أن تكونَ هناك حاجة لحالة قلق.

الفصلُ الثالث
الحاسَّة السَّادسة

قبل أن نبحثَ في حقيقة الحاسَّة السَّادسة، فَلْنَستعرِضْ أوَّلاً الوقائعَ الَّتي تتناولُ بعضَ النَّواحي الَّتي تمتُّ إليها بِصِلَة.

١- الأحلامُ الَّتي تتحقَّق

حلمَ أحدُهم أنَّه يجلسُ إلى مائدة غداء برفقة أحد أصحابه القدامى لم يلتقِ به منذ أكثر من سنتَين. وعلى المائدة قدَّمه صاحبه إلى سيِّدة شقراء لم يستطِع رؤيةَ وجهها بوضوح. بعدها لم يتذكَّر من باقي الحلم سوى أنَّه ضاع في حشد كبير من النَّاس أخذَ بالاضمِحلال حتَّى أصبح سَيلاً من الماء. ويؤكِّد الحالمُ أنَّه تسلَّم في اليوم التَّالي دعوةً لحضور إكليل صاحبه، وأنَّ دهشتَه كانت عظيمة عندما تعرَّف إلى عروسه في حفل الزّفاف، وكانت شقراء. وقد غادر العروسان لبنان بعد الإكليل على متن باخرة في شهر العسل. هل هذي مصادفة؟ وإلاَّ، ما سرُّ هذا الحلم؟ علمًا أنَّ الأحلام الَّتي تشبه هذا الحلم عديدة، وعديدةٌ جدًّا.

٢- التَّقديرات والتَّوقُّعات الصَّائبة

إشترى ولدي هديَّةً لأحد أصحابه؛ وإذ كان في حالة عدم ثقة لجهة إذا كانت هذه الهديَّة هي بمستوى المال الَّذي دفعه عليها أم لا، أتى إليَّ وطلب مني أن أخمِّن ثمنها. وأقرُّ أنِّي لم أكن أعرف حتَّى سعرها التَّقريبيّ، ولكنِّي رأيت نفسي أجيبُه من دون تردُّد: سبعة عشر دولارًا ونصف. وكأنَّ صاعقةً ضربته، فأخذ ينظر إليَّ فاغرًا فمَه، مذهولاً؛ وفهمتُ من حالته أنَّه ينتظر مني أن أُنجِدَه بتفسير يبدِّد به الارتباك الَّذي اعتراه من جوابي الدَّقيق، فضحكت له.

كما أنَّ كثيرًا من الأمور غير المُعلَنَة الَّتي يقرِّر البعضُ القيامَ بها يتوقَّعُها البعضُ الآخر قبل تنفيذها، وذلك من دون تفكير أو دراية، وإنَّما عن طريق الحدس.

٣- الشُّعور الحدسيّ

لا بدَّ أن يكونَ كلٌّ منَّا قد مرَّ بحالة شعرَ فيها أنَّ أحدهم يحدِّقُ به ويراقبُه من دون دراية منه؛ حتَّى إذا ما استدار اكتشف أنَّ هناك، فعلاً، مَن ينظرُ إليه.

٤- الأمنيات المحقَّقة

يروي السَّيِّد هيثم أنَّ عداءً استحكمَ بينه وبين أحد جيرانه في الحيِّ الَّذي يسكن فيه. ويروي أنَّه كان جالسًا مع عائلته على شرفة منزله في أحد الأيَّام عندما رأى جاره عائدًا بسيَّارته إلى بيته. وإذ كان هذا الجار يحاول إيقاف سيَّارته في موقفه الخاصّ، تمنَّى السَّيِّد هيثم بينه وبين نفسه أن تصطدمَ السَّيَّارةُ بالحائط. وفعلاً، اصطدمتِ السَّيَّارة بالحائط، وتحطَّم أحدُ أضوائها.

٥- الحاسَّة السَّادسة

هل ثمَّةَ ما يجمعُ ما في الأمثلة السَّابقة؟ وهل هناك ما يفسِّر الوقائع الَّتي تضمنتها؟ أم أنَّها مجرَّد صدفة؟ إذا تصوَّرنا من ناحية أولى أنَّ هناك تأثيرات تصلُنا عن طريق تموُّجات شبيهة بتلك الَّتي يلتقطها جهاز الرَّاديو، وإذا افترضنا أنَّ الذَّاكرة الغريزيَّة قادرة على التَّأثُّر بها من دون واسطة إحدى الحواسِّ الخمس، لأصبح في إمكاننا فهمُ بعض الأمور الَّتي استعصَت علينا. وإذا تذكَّرنا من ناحية ثانية أنَّ خلايا الذَّاكرة الغريزيَّة غير مرتبطة بالمركز، ممَّا يعني أنَّ تأثُّراتها تبقى غير واعية، لَفَهمنا بعضَ الأمور الأخرى.

تجدر الإشارة إلى أنَّ مثل هذه التَّموُّجات تصدر عن الإنسان، وعلى نحوٍ خاصٍّ عنه عندما يكونُ في حالة تفكير عميق. وهي، ككلِّ صفة عند الإنسان، تميِّزُ الفردَ كما تميِّزُ الفكرة الَّتي تمرُّ في خاطره. وهذا يسهِّل علينا فهم الوقائع الَّتي أشرنا إليها في السَّابق. يبقى أن نحدِّد آليَّةَ تحوُّل هذه التَّموُّجات تأثيراتٍ واعية؛ فعند أوَّل تأثيرٍ

لها، ترافقُ هذه التَّموُّجات التَّأثيرات الواعية الَّتي تلتقطها الحواسُّ الخمس فتؤثِّر في خلايا الذَّاكرة الغريزيَّة في الوقت عَينه الَّذي تؤثِّر فيه التَّأثيرات الأخرى في خلايا الذَّاكرة الواعية؛ فيحصُل ارتباطٌ بين تلك الخلايا كلِّها ويتمُّ الاتِّصالُ بين الذَّاكرتَين، حتَّى إذا ما تهيَّجت خلايا إحداهما انتقلَ التَّأثير إلى خلايا ثانيتها. وإذا كان هذا الانتقال من الذَّاكرة الغريزيَّة الَّتي التقطت إحدى التَّموُّجات باتِّجاه الذَّاكرة الواعية انتقلَ تأثير التَّموُّجات اللاوعي إلى تأثيرٍ واعٍ يطرقُ بابَ المركز.

فعندما نتعرَّف إلى فرد، تأخذُ التَّأثيرات البصريَّة والسَّمعيَّة طرقَها إلى الذَّاكرة الواعية لتطبعَ بخصائصها بعضَ خلاياها، بينما تدخل بعض التَّموُّجات الذَّاكرةَ الغريزيَّةَ لتؤثِّر في بعض خلايا هذه الذَّاكرة. فيتمُّ الاتِّصالُ التَّزامنيُّ بين كلِّ هذه الخلايا، حتَّى إذ ما تأثَّرت الخلايا الغريزيَّة مجدَّدًا هيَّجت الخلايا الأخرى المتَّصلة بها وتحوَّلت تأثيراتٍ واعيةً تعطي صورة الفرد كما توحي بالفكرة الَّتي عملَ عليها. بهذا، تصبح الحاسَّة السَّادسة جهازًا لاقطاً لمجمل التَّأثيرات اللاَّواعية الَّتي يتأثَّر بها الفكر بطريقة غير مباشرة بواسطة الذَّاكرة الغريزيَّة، مع العلم أنَّ هذه التَّأثيرات يمكن أن تتحوَّل تأثيراتٍ واعيةً كما ذكرنا سابقًا، وبخاصَّةٍ عندما يكون الفكر في حالة استرخاء تامّ. ونشير إلى أنَّ هذه التَّموُّجات لا تصدر فقط عن البشر بل عن كلِّ الأجسام الطبيعيَّة المتغيِّرة؛ وتتعلَّق قوَّة تأثيرها بحجم العنصر الَّذي أطلقها ونوعيَّته، وبسرعة تغيير مصدرها.

في هذا الإطار، لا بدَّ أن نطرح التَّساؤل الآتي:

إذا كانت التَّموُّجات تصدر عن البشر وعن الأجسام الطبيعيَّة، فلا بدَّ أن يكون هناك الملايين منها في الوقت الواحد. فكيف لا يتأثَّر الفكر سوى بواحدةٍ منها فقط؟

والجواب هو أنَّ الفكر يتأثَّر فعلاً بكلِّ تلك التَّموُّجات، إنَّما يتفرَّد بتأثير واحد مميَّز منها لأنَّ المركز لا يتأثَّر في الوقت الواحد إلاَّ بتأثيرٍ واحد. وهذا التَّأثير لا بدَّ وأن

يكون قد سبق وشقَّ طريقه إلى الذَّاكرة الواعية، وأن يكون الأقوى، أو المألوف. ثمَّ إنَّ الفكر لا يعي كلَّ هذه التَّموُّجات إلاَّ إذا كان في حالة استرخاءٍ تامّ، أي عندما يكون هيجانُ الخلايا الَّذي تسبِّبه تلك التَّموُّجات أعظم من هيجان أيّ خلية أخرى.
كما نشير إلى أنَّه قد تتلاقى تموُّجات عدَّة، وتتقاطع، كي تؤثِّر في الذَّاكرة على نحوٍ خاصٍّ وفريد.
وفي المختصر، نستطيع تحديد الحاسَّة السَّادسة بحاسَّة تتعلَّق بتموُّجات تصدر عن كل جسم أو حالة متغيِّرة. والفكر النَّاشط هو في تغيير مستمرّ، وهو، بالتَّالي، يصدر نوعًا من هذه التَّموُّجات. والذَّاكرة الغريزيَّة قادرة على التقاط تلك التَّموُّجات فتصبح، بالتَّالي، عضو تلك الحاسَّة.
والحاسَّة السَّادسة، كباقي الحواسّ، دائمة العمل لا تهدأ، إنَّما تختلف عنها في أنَّها لا تطرق باب المركز؛ ولذا، تبقى غير واعية. وعليه، لا يمكن الشُّعور بها كلَّما كان هذا المركز بنشاطه. فهيجان خلايا الذَّاكرة الإدراكيَّة يبقى أقوى من تأثيرات الذَّاكرة الغريزيَّة. ولكن، عندما يكون المركز في حالة استرخاء، يخفُّ هيجان هذه الخلايا وتصبح الذَّاكرة الغريزيَّة قادرة على نقل بعض تأثُّراتها إلى الذَّاكرة الإدراكيَّة.

٦- الحاسَّة السَّادسة من الناحية العلميَّة

من المعروف أنَّ التيَّارَ الكهربائيَّ يخلق حول السِّلك الَّذي يمرُّ فيه حقلاً كهرومغناطيسيًّا كالَّذي يتأثَّر به جهازُ الرَّاديو، وأنَّ التيَّار المتغيِّر يخلق حقلاً متغيِّرًا يصدر تموُّجات تنتشر بسرعة الضَّوء.
والمعلوم أيضًا أنَّ التَّأثيرات تصل الدِّماغَ على شكل شحنات كهربائيَّة متغيِّرة أي على شكل تيَّارٍ كهربائيٍّ قادرٍ على أن يخلق نوعًا من تلك التَّموُّجات.

الفصلُ الرَّابع
في الحقيقة والخيال

١- حقيقة الصُّورة الفكريَّة

الصُّورة الفكريَّة حقيقة؛ فكلُّ مَن يرى ويسمع أو يشعر تتراءى له صورة فكريَّة. والدَّليل على ذلك أنَّه يتذكَّرها في ما بعد. وحقيقة الصُّورة الفكريَّة تعود إلى السِّلسلة الفكريَّة المسبِّبة والَّتي أصبحت مَطبوعةً في فكر الإنسان.

والكفيف يكوِّن هو الآخَر صورًا فكريَّةً قد تكون مختلفةً عن صورة المُبصِر، ولكنَّها حقيقة.

والصُّورة الفكريَّة لا تدوم؛ فقد تُزاد عليها تأثيرات جديدة من خارج الفكر أو من داخله، لكنَّها تبقى حقيقة.

والصُّورة الفكريَّة تكون صادقةً إذا تطابقت مع الواقع؛ وتكون غير صادقة إذا لم تتطابق تمامًا مع ذلك الواقع.

وترتسم الصُّورة الفكريَّة غير الصَّادقة لأسباب مختلفة، منها:

- عدم تأثُّر الدِّماغ على نحوٍ صحيح بكلِّ نواحي الواقع.
- عدم قدرة الدِّماغ على التأثُّر بكلِّ التَّأثيرات الواردة في آن واحد، فيعطي صورة مشوَّشة تُبعدها بعض الشَّيء عن الصِّدق.
- عدم تأثُّر الدِّماغ ببعض تأثيرات الواقع الَّتي لا تكون بقوَّة كافية للتَّأثير عليه أو الَّتي قد تكون خافية عن حواسِّ الإنسان.

ونُشير أيضًا إلى أنَّ دخول بعض العوامل الخارجيَّة، وحتَّى الداخليَّة، قد يعمل على تغيير الصُّورة الصَّادقة بخلق سلاسل جانبيَّة تشوِّهها.

٢- حقيقة الواقع الَّذي كوَّن الصُّورة الفكريَّة

والواقع الَّذي كوَّن الصُّورة الفكريَّة هو حقيقة؛ والدَّليل على ذلك تكوين تلك

الصُّورة بالذَّات. ولكن، هذه الحقيقة توصَف بالنِّسبيَّة، أي بالنِّسبة إلى الإنسان الَّذي تكوَّنت لديه تلك الصُّورة، وكذلك بالنِّسبة إلى ذلك الواقع. فقد تختلف تلك الصُّورة من إنسانٍ إلى آخَر؛ وقد يختلف الواقع إمَّا بتغيُّره وإمَّا بوجود نواحٍ عدَّة له، رأى الإنسان الأوَّل بعضَها، ورأى الآخَر بعضَها الآخَر.

ويكون الواقع (أو على الأقلّ بعضُ نواحيه) حقيقة مُطلَقة إذا أعطى صورًا فكريَّة ذاتيَّة عند كلِّ مَن تأثَّر به من البشر في زمن وجوده.

والواقع لا يدوم؛ فقد يتغيَّر، فتصبح الحقيقة حقيقة ماضية وتحلُّ محلَّها حقيقة حاضرة تختلف عنها، ولو بشيء ما. والحقيقة الماضية تفقد صفتَها المُطلَقة إلاَّ إذا تركت بعض خاصيَّاتها كآثارٍ تدلُّ عليها. وأمَّا الحقيقة الحاضرة فمُطلَقة.

وقد تدوم حقيقة ما لبعض الزَّمن، فتُنعَت بالدَّائمة، وقد تزول، وتُنعَت بالزَّائلة.

ولا بدَّ لنا من أن نُشير إلى أنَّ هناك حقيقة ظاهرة، أي حقيقة ما يظهره الشَّيء للنَّاظر، وحقيقة خافية، أي حقيقة يعجز النَّاظرُ (وليس كلُّ ناظر) التَّأثُّرَ بها لسبب ما.

بهذا التَّحديد تصبح الحقيقة الظَّاهرة والحقيقة الخافية نسبيَّتَين إلى النَّاظر، ونسبيَّتَين إلى الواقع.

٣- التَّعبير عن الصُّوَر الفكريَّة

الإنسان بطبعه يحبُّ مشاركة النَّاس بصُوَره العقليَّة؛ ولِنَقلها إلى هذا الغَير، عليه أن يظهرَها على نحوٍ مَحسوس، أي بتأثيرات قادرة على طَرق أبواب الحواسّ.

والتَّعبير هو نقل هذه الصُّوَر من الفكر إلى المَحسوس.

وللإنسان طُرُق مختلفة للتَّعبير عن صُوَره العقليَّة:

– فقد يتكلَّم، ويكون كلامُه تعبيرًا عن تلك الصُّوَر.

- وقد يقوم ببعض الحركات والإشارات والإيماءات، وتكون هذه نوعًا آخَرَ من التَّعبير.
- وقد يقومُ بخطِّ رموز (كتابة أو صُوَر)؛ وهذه تؤلِّف نوعًا آخَرَ جديدًا من التَّعبير.

ونُشير إلى أنَّ هذه الأشكال في التَّعبير هي أشكال مقصودة، أي أنَّ صاحبها يريد ويرغب مشاركةَ الغَير بالصُّوَر المعبَّر عنها، إذ إنَّ هناك مشاركة غير مقصودة بل مفروضة فرضًا على صاحبها، ألا وهي الحاسَّة السَّادسة.

والتَّعبير يكون صادقًا إذا تطابقَ فعلاً مع الصُّوَر الفكريَّة المعبَّر عنها؛ فقد تتقاطع في فكر الإنسان سلاسلُ عدَّة، وتتداخل، فينتج من هذا التَّداخل تعبيرٌ آخَرُ غير التَّعبير الصَّادق، نصفه بالتَّعبير المشوَّه أو غير الصَّادق.

٤- الحقيقة في التَّعبير

الحقيقة في التَّعبير هي تطابقُ تأثيراته مع تأثيرات الواقع الحقيقيَّة. ويجبُ التَّمييزُ بين الحقيقة في التَّعبير وحقيقة التَّعبير الَّتي تعني الصِّدقَ في التَّعبير. فقد يكون التَّعبير حقيقيًّا في صدقه، ولكن ليس فيه كلُّ حقيقة الواقع. فقد تكون الصُّورة الفكريَّة مشوَّهة لعَجزٍ في الدِّماغ، أو مِن جرَّاء تداخل السَّلاسل الفكريَّة، أو لأيِّ سببٍ آخَر.

٥ - التَّخَيُّل

التَّخَيُّل هو نشاط الفِكر (تفكير) الَّذي يعطي صُوَرًا لا تتطابق جُزئيًّا أو كلِّيًّا مع الواقع الَّذي كان سببًا لها، أو مع أيِّ واقع على الإطلاق.

وأسباب التَّخَيُّل عديدة، نذكر منها الآتي:

– عدم تثبيت الصُّورة الفكريَّة أصلاً على نحوٍ مُطابقٍ للواقع لتشويهٍ في هذا الواقع، أو لتشويهٍ أو عجزٍ في عمل الفكر، أو لخللٍ في عمل الحواسّ. ويُقال للتَّخيُّل، في هذه الحال، إنَّه غيرُ مَقصود.

– كون الفكر في حالة اللاَّوعي على الرَّغم من كون الصُّورة الفكريَّة متطابقة أصلاً مع الواقع. ولكن، تتقاطع السِّلسلة الفكريَّة التَّابعة لهذه الصُّورة مع سلاسل فكريَّة أخرى على نحوٍ طبيعيّ، فيُضفي هذا التَّقاطع بعضَ اللَّقطات الخاطئة أو الدَّخيلة على الصُّورة الصَّحيحة فيُشَوِّهها. ويُقالُ عن هذا التَّخَيُّل إنَّه غيرُ واع.

– كون الصُّورة الفكريَّة متطابقة مع الواقع، مع كون الفكر في حالة وعي مُطلَقة. وإنَّما تُصاحب هذه الحالة خلايا فكريَّة في حالة تهيُّج شديد، فيتمُّ الاتِّصال في ما بين هذه الخلايا وخلايا الصُّورة الصَّحيحة، فتَتَشوَّه هذه بسبب التَّقاطع. ويُقالُ عندئذٍ عن هذا التَّخَيُّل إنَّه مقصود أو واع، إذ يكون الفكر قد تعمَّد تهييجَ هذه الخلايا لإضفاء التَّخَيُّل المَنشود.

٦- الخيال

الخيال هو نتيجة الفكر النَّاشط في التَّخَيُّل؛ فهو التَّعبير عن صُوَر فكريَّة غير متطابقة جُزئيًّا أو كلِّيًّا مع الواقع الحقيقيّ. وكما التَّخَيُّل يكون الخيال: فهناك الخيال المقصود، والخيال العفويّ، والخيال اللاَّواعي.

٧- الوَهم

الوَهم نوعٌ من الخيال الَّذي قد يتطابق مع واقع معيَّن، ولكن من دون أن يكون واقعًا حقيقيًّا.

٨- حقيقة التَّخَيُّل

التَّخَيُّل حقيقة، بمعنى أنَّ الإنسان الَّذي تلمَّس الواقعَ الحقيقيَّ يستطيع، بمقارنة هذا الواقع مع صورة التَّعبير الصَّادرة عن صاحب الخيال، التَّأكُّدَ من حقيقة التَّخَيُّل بإظهار الفروقات الدَّخيلة وتبيانها.

وقد يُقال إنَّ صاحبنا الَّذي قلنا عنه إنَّه تبيَّن الخيال عند الآخر هو صاحب الخيال، وإنَّ الآخر هو مَن تلمَّس الحقيقة؛ وهذا صحيح. ولكنَّنا نفترض أنَّ الحقيقة هي الحقيقة المُطلَقة الَّتي حدَّدناها سابقًا، أي تلك الَّتي تمَّ التَّوافق عليها من مجموعة كبيرة من البشر، وأنَّ هذه الحقيقة هي عند الإنسان الَّذي تلمَّسها.

٩- حلم اليَقظة

حلم اليَقظة هو استحداثُ صُوَر عقليَّة واعية لوقائع يتمنَّاها المرء أن تحدث، وهي لم تحدث بالفعل، وبالتَّالي، فحلم اليَقظة نوعٌ من التَّخَيُّل الواعي المقصود.

وقد يقال عنه أيضًا استحداث صُوَر عقليَّة في فترة استرخاء غير واعية يكون فيها الإنسان صاحيًا، ولكن من دون تركيزٍ فكريٍّ على مسألة خاصَّة؛ عندها، يكون حلم اليَقظة نوعًا من التَّخَيُّلِ العفويِّ غير المقصود.

الفصلُ الخامس
الوَحي والإيحاء والإلهام

١- الوَحي

الوَحي هو التقاطُ فكر الإنسان تأثيرًا مُبهَمًا غير معروف المصدر، يعكسُ ردَّ فعلٍ على واقعٍ معيَّنٍ يمثِّلُ لذلك الإنسان قلقًا ما. وتكون نتيجة هذا التَّأثير شرودَ الفكر بصُوَر عقليَّة قد تؤلِّف حلاًّ عفويًّا لِقَلَقه.

ونقول إنَّ هذا الواقع هو الَّذي حفَّزَ الوَحي.

والوَحي على نحوٍ آخَر يصبح إعادةَ توجيه سلسلة فكريَّة قائمة في فكر الإنسان وذلك بتأثيرٍ خارجيٍّ أو داخليٍّ مَجهول المصدر.

فإذا واجهَتني مشكلة صَعُب عليَّ حلُّها، وقد صرفتُ الوقت الطَّويل وأنا أحاولُ التَّعاملَ معها من دون الوصول إلى نتيجة مُرضِيَة، ثمَّ، وبلحظة قصيرة، وبطريقة غير منتَظَرة، طرأت على لبِّي فكرةً قد تمثِّلُ الحلَّ المَنشود، أقول إنَّ وَحيًا هبط عليّ.

والوَحي يُلهم الشُّعراء والفنَّانين، فتأتيهم الأفكار المناسبة لتحدِّدَ لهم مواضيع قصائدهم ولوحاتهم وموسيقاهم من دون عناء؛ وأمَّا الحافزُ فيكون واقع الشَّاعر أو الفنَّان أمام نفسه عندما يتساءل عن موضوعٍ لشعره أو رسمه أو موسيقاه.

٢- مصادرُ الوَحي

مصادرُ الوَحي مختلفة، نذكر منها الأكثر شيوعًا:

١- **الحاسَّة السَّادسة:** تأتي بعض التَّأثيرات عن طريق الحاسَّة السَّادسة، وبخاصَّةٍ عندما تقوم جماعةٌ من النَّاس بنشاطٍ فكريٍّ متزامنٍ لإيجاد حلٍّ لمشكلة واحدة، فتكثر التَّموُّجات، وقد يساهم بعضُها على تشكيل التَّأثير الصَّحيح.

٢- **التَّأمُل اللاَّواعي:** قد يحدِّق أحدُهم بلا وَعي في تقاطيع ونتوءات ممَّا قد يوجَدُ في حقل نظره من أشياء (جدار – لوحة – كرسيّ – درج – ستارة...). وعلى الرَّغم من أنَّ هذه التَّقاطيع لا تمثِّل أيَّ واقع على الإطلاق، يروحُ الفكرُ اللاَّواعي بمقابلتها مع بعض الصُّوَر الَّتي اختزنَها سابقًا، ولَتَراءت له، في تلك التَّقاطيع، أشكالٌ قد تحفِّز الوَعي على سلوك الطَّريق الصَّحيح في التَّفكير.

٣- **المَنطق اللاَّواعي:** يعمل المركز في حالة اليَقظة على التَّدخُّل المستمرِّ في التَّفكير، فيقود السَّلاسل الذَّاكريَّة في اتِّجاهات متفرِّقة بتأجيجه بعضَ الخلايا الخاصَّة. وقد يصعبُ في بعض الأحيان الوصولُ في هذه الحال إلى نهاية ملائمة. وأمَّا في حالة اللاَّوَعي والاسترخاء فتجري التَّأثيرات، من دون تدخُّل المركز، بحَسَب الطَّريق الأسهل وتبعًا للخلايا الأكثر عمقًا في آثارها. وقد تصل إلى نهاية قد تمثِّلُ الحلَّ المَطلوب؛ وهذا ما نُطلق عليه تسميةَ المَنطق اللاَّواعي.

٤- **الأرواح:** يتكلَّم البعضُ على وحيٍ إلهيّ، ويَعزو مصدرَ التَّأثير إلى قوًى روحانيَّة. ونحن لن نعلِّقَ على ذلك سوى بالقول أنْ لا تعاملَ بين المادَّة والرُّوح. فالوَحي كتأثيرٍ يأتي من مصدرٍ مادِّيٍّ داخل الفكر أو خارجه.

٥- **ظروفُ الموحى له:** الإنسان القلق ينوءُ عادةً تحت وطأة ظروف قاهرة وضاغطة تسبِّب له تلك الحالة. وقد تكون لهذه الظُّروف الكلمة الفصل في توجيهه إلى النَّاحية الَّتي عليه اللُّجوء إليها ليزيحَ عنه هذا العبء.

٣ - الإيحاء

الإيحاء هو وَحي عرف مصدره فانتسب إليه (إنسان آخر، أو حيوان، أو أي شيء هو في

مدى نظر أو تأثُّر الموحَى إليه). والمعروف أنَّ الفكر يتقبَّل هذا الوَحي، وينصاع له بلاوَعي، ويحاول تطبيقَ ما جاء فيه.

بهذا يصبح الإيحاء اعتناقَ إنسان رؤيةً أو فكرةً تأتيه بالوَحي من فكر إنسان آخر أو من أي شيء آخر، وذلك من دون إدراك منه.

والفرق بين الوَحي والإيحاء واضح: فالوَحي يتعلَّق بالموحَى إليه فقط، وأمَّا الإيحاء فيتعلَّق بالموحَى وبالموحَى إليه.

٤- الإلهام

الإلهام نوعٌ من وَحيٍ "يطلبه" الإنسان من مصدرٍ معيَّن؛ وقد يأتيه من هذا المصدر بالذَّات أو من أيِّ مصدر آخر، وقد لا يأتيه أبدًا.

فقد أطلبُ من الله أن يلهمَني سبيلاً أتخلَّصُ به من محنةٍ أنا فيها؛ وقد يأتيني الإلهام من أحدهم عانى ممَّا أعانيه.

الفصلُ السَّادس
الأحلام

١- الحلم

الحلمُ مجموعةُ صُوَر عقليَّة ناتجة من إعادة تأثُّر غير واعية لسلسلة تذكُّريَّة أو لمجموعة خلايا ذاكريَّة في أثناء النَّوم أو في أثناء أيِّ استراحة أخرى للمركز، ينتقلُ خلاله التَّأثير من خلية إلى أخرى تبعًا للطَّريق الأسهل. والطَّريق الأسهل كما رأينا تحتِّمه الخلايا الأكثر عمقًا في الأثَر أو الأحدث هيجانًا.

والحلم، بهذا، يُصبح نوعًا من التَّذكُّر أو التَّفكير غير الواعي.

٢- سَير الحلم أو ميكانيكيَّة تكوينه

يتكوَّن الحلم عندما تتهيَّج خلايا ذاكريَّة عدَّة لسببٍ من الأسباب، فتهيِّج مبدئيًّا كلَّ الخلايا الَّتي هي باتِّصال مباشر معها. وهذا التهيُّج لعدد كبير من الخلايا في اللَّحظة الواحدة يسبِّب صورة عقليَّة خاصَّة. ومع الوقت، تتغيَّر الخلايا المتهيِّجة بالكمِّيَّة والدَّور، فتتكثَّفُ أو تقلُّ لتعطيَ صُوَرًا جديدةً متلاحقة. والخلايا الَّتي ينتقل التَّأثير من واحدتها إلى الأخرى ليهيِّجها لا تمثِّلُ بالضَّرورة سلسلة ذاكريَّة كاملة (على أثر حادثة معيَّنة) ، وإنَّما قد تمثِّلُ أيضًا مجموعةً من الخلايا المرتبط بعضُها بالبعض الآخر عن طريق خلايا مشتَرَكة بين سلسلة وأخرى. فقد يحلم الواحد منَّا بحادثة قريبة إلى حادثة حقيقيَّة وقعت له في وقتٍ ما (سلسلة ذاكريَّة)، وقد يحلم بحادثة غريبة تكون نتاج سلاسل ذاكريَّة مختلفة، ولكنَّها متَّصلة بعضُها بالبعض الآخَر بعددٍ من الخلايا المشتَرَكة، كالحلم بالشَّكل المربَّع مثلاً الَّذي يربط دار غرفة الاستقبال المربَّع، ووجهَ السَّيِّد سمير المربَّع، وكفَّ السَّيِّدة سمينة المربَّع. فالسِّلسلة في هذا المثال تشمل خلايا هذه الأمور بشكلها المربَّع من دون باقي التَّفاصيل المتعلِّقة بها.

وبهذا، يصبح الحلم مجموعةَ أفكار أو حلقات تعكسُ كلَّ حلقة منها سلسلةً خاصَّة. وتفصل بين الحلقة والأخرى محوِّلاتٌ أو منبِّهات، وهي عناصر تنتهي عندها الحلقة القائمة لتنطلقَ الحلقة التَّالية فيتحوَّل بذلك اتِّجاهُ الحلم من الفكرة السَّابقة إلى الفكرة اللاَّحقة.

٣- منبِّهات الحلم

وإذا كانتِ الأحلام فعلاً متواصلةً متعاقبة، فما الَّذي يقرِّر حلقاتها؟ وكيف تتولَّد المنبِّهات؟

كلُّ جديد يطرأ على إحدى حقولِ الحواسِّ في اليَقظة هو سببٌ قد يغيِّر اتِّجاه التَّفكير. فبينما أنا مثلاً شاردُ الفكر، أسألُ نفسي عن معنى الحياة، تراني أنقطعُ عن شرودي لأستطلعَ ناحيةَ صوتٍ سمعتُه، أو مركزَ نورٍ لمحتُه، أو مصدرَ عطرٍ شَمَمتُه.

وكما في اليَقظة، كذلك في الحلم. ولكن، بينما في اليَقظة تكون المنبِّهات واضحة وحسِّيَّة، كونها واعية، تكون منبِّهات الحلم صامتة، خفيَّة، صعبة عند الكشف على حقيقتها، كونها غير واعية. لكنَّنا استطعنا اكتشاف البعض منها كنتيجة تفكيرٍ منطقيٍّ واع، أو كنتيجة لبعض التَّجارب الخاصَّة.

أوَّلاً – منبِّهات ذاكريَّة: فاستمرار هيجان بعض الخلايا التي تمَّ تأثيرها تمامًا قبل النَّوم من قبل العقل الواعي تقودُ إلى بداية مقطع حلم. فمشهد الجنديِّ القديم في الصُّورة المَطبوعة في أحد كتب التَّاريخ، والَّتي وقع نظري عليها تمامًا قبل أن أغفوَ وينزلقَ الكتاب من يدي، كفيلٌ بأن يأخذَني في حلم يكون فيه هذا الجنديُّ عنصرًا أساسًا.

ثانيًا – منبِّهات خارجيَّة: بعض التَّأثيرات الخارجيَّة قد تدخل الفكرَ وتؤلِّف منبِّهات لبعض السَّلاسل التَّذكُّريَّة، فتدخل الحلم. فإنْ حطَّت ذبابة على يدي وأزعجتني وأنا في غفوةٍ عميقة، تهتاجُ في ذاكرتي خلية يدي، فتنهي الفكرة القائمة وتطلق سلسلة خاصَّة تحدِّثُني عن يدي. وإنْ سمعت نداءً أو شعرت بحرارة قويَّة انطلق حلمٌ في رأسي يصوِّر صاحب النِّداء بحالة تذكُّريَّة أو نارًا تلتهم أحشائي في كابوسٍ يهزُّ كياني.

ثالثًا – إنزعاج عضويّ: كلُّ انزعاج يشتكي منه عضوٌ من أعضاء الجسم كألم في ضرس أو تلبُّك في المعدة أو كلِّ ما شابَه ذلك، هو سببٌ كافٍ ليغيِّرَ مجريات حلم قائم أو ليطلقَ حلمًا جديدًا، وذلك بدءًا من الخلية المتأثِّرة بالعضو المَعني أو بتلك المتعلِّقة بالشُّعور بالألم أو بالتَّلبُّك.

رابعًا – مصادر نفسيَّة: إنَّ انشغال البال بحادثة، أو بقضيَّة، أو بمقابلة، أو بامتحان، قد يؤثِّر عميقًا في بعض الخلايا، ويسبِّب لها هيجانًا مستمرًّا. وهذا الهيجان قد يمثِّل انطلاقةَ حلم أو تغيُّرًا في مَجرًى آخر.
فالاجتماع القريب بأحد الأشخاص النَّافذين يخلق في نفس الإنسان حالات ترقُّب أو ارتباك أو فرح. وهذه الحالات تهيِّج مجموعةً من الخلايا قد تكوِّن انطلاقةَ سلسلة تذكُّريَّة يكون ذلك الشَّخص محورًا لها.

خامسًا – تموُّجات الحاسَّة السَّادسة: قد تلتقط الحاسَّة السَّادسة تموُّجات خاصَّة فتتأثَّر بها الذَّاكرةُ الغريزيَّة. وقد ينتقل تأثيرُها إلى الذَّاكرة الواعية حيث يحرِّك حلمًا تكون مادَّةُ تلك التَّموُّجات موضوعَه الأساس.
فإذا التقطت ذاكرتي الغريزيَّة تموُّجات سبَّبتها اضطراباتٌ في باطن الأرض تُنذر بحـــدوث زلازل أو شقـــوق أو تفسُّخات على سطح الأرض فقد أحلـــم بنتائج تلك

التَّحرُّكات كشعوري بتجمُّد الدَّم في عروقي، أو كمشاهدتي لتمايل المباني وانهدامها، أو لكوارث الرُّعب ممَّا آلفته في الأفلام التِّلفازيَّة.

سادسًا – دور العين: يظهر أنَّ دور العين أساسيٌّ في انطلاقة الأحلام وتطوُّرها. ففي اليَقظة نشعر كلُّنا بالصُّوَر العاديَّة الَّتي نألفُها تنعكسُ على شاشات عقولنا بوضوح ودقَّة، ثمَّ تأخذ بالتَّغيُّر والتَّبدُّل مع أقلِّ تغييرٍ في اتِّجاه النَّظر. ولكن، عندما نغلق عيوننا تختفي الألوان ويحلُّ السَّواد مكان الصُّوَر وتلفُّ عقولَنا ظلمةٌ يسبِّبها عدم وصول التَّأثيرات الضَّوئيَّة إلى خلايا حاسَّة البصر. ولكن، إذا أمعنَّا النَّظر بصبرٍ في تلك العتمة لَتَراءت لنا صُوَرٌ عقليَّةٌ لا حسِّيَّةٌ ترتسمُ على تلك الشَّاشات السَّود، ثمَّ تأخذ بالتَّلوُّن والتَّحرُّك، وما تلبثُ أن تصبحَ حقيقةً ماثلةً أمامنا؛ فتأخذ عيوننا بالتَّحرُّك هبوطًا وصعودًا، يمنةً ويسرة، وراء التَّفاصيل، لدراستها والتَّمَعُّن بها، فتتبعُها تلك الصُّوَر بحركتها. وإذ تصل العيون بدورها إلى أقصى ما تستطيعه في اتِّجاهٍ معيَّن، تتولَّدُ عندها حالة انزعاج تعود على أثرها إلى وضعيَّاتها الطَّبيعيَّة. وإذ تفعل ذلك، تتبدَّد الصُّوَر المرئيَّة، وتظهرُ مكانها صُوَرٌ جديدةٌ تعملُ على إطلاق سلاسل تذكُّريَّة جديدة.

وحتَّى لو لم يكُن هناك من صُوَر، فأحيانًا تستجيبُ العينُ لنَبْض القلب، فتنتفضُ الشَّرايين الَّتي تسقيها بالدَّم، وترمي بذلك صُوَرًا وأشكالاً على شاشة الفكر السَّوداء، ممَّا قد يوقف حلمًا قائمًا، ويطلق حلمًا جديدًا.

٤- مادَّة الحلم

بعد أن حدَّدنا مفهومَ الحلم العلميّ، وبيَّنَّا طريقة عمل الفكر، نؤكِّد أنَّ مادَّة الحلم تقوم على كلِّ ما ادَّخرَته الذَّاكرة منذ زمن الطُّفولة المُبكرة حتَّى اللَّحظات الأخيرة، وعلى

ما قد يصل الفكر من تموُّجات خارجيَّة في الوقت الَّذي يدور فيه الحلم من دون التَّحدُّث عن محتوى ظاهرٍ أو باطن.
ونشير إلى أنَّه من الطَّبيعيِّ أن تكون مدَّخراتُ اليوم الأخير الأكثر إثارةً، وبالتَّالي، الأكثر ظهورًا في الأحلام، لأنَّ الخلايا المتعلِّقة بها تكون الأحدث تأثُّرًا والأكثر حساسيَّةً على الهيجان.

٥- الحلم المتذكَّر

الحلم، عادةً، لا يُتذَكَّر، كونه غير واعٍ، فمقاطع السَّلاسل الذَّاكريَّة الَّتي تشكِّله لا تثبَّت، كون المركز في حالة استرخاء. وقد يستيقظ النَّائم في وقت لا تزال فيه بعض "خلايا حلم" متهيِّجة، فيتأثَّر المركز بها، وتصبح تأثيراتها واعية، وتتحوَّل مقاطع الحلم المتَّصلة بها سلاسلَ مُتَذكَّرة. وأمَّا إذا كان هيجان كلِّ الخلايا قد خَبا قبل الاستيقاظ، فلا يصل المركز المنتعش حديثًا أيُّ تأثير، وبالتَّالي، لا يَعي النَّائم والصَّاحي لتوِّه أيَّ حلم.

٦- خصائص الحلم

أوَّلاً – الحلم واهٍ غير واضح: إنَّ صُوَرَ الحلم ومشاهدَه ليست دقيقةَ التَّفاصيل لأنَّ:

- الحلم ليس انعكاسًا لحقيقة مرئيَّة يمكنُ التَّدقيق بتفاصيلها.
- صُوَره لا تمرُّ إلاَّ لبرهة وجيزة، ولا مجال للتَّركيز فيها.
- المركز في حالة استرخاء، وعندما يستعيد نشاطَه، لا يعي إلاَّ بعض صُوَر الحلم.
- الصُّورة المعكوسة على شاشة الفكر إنَّما هي تذكُّر، والتَّذكُّر يرتكز على ما هو مطبوع، وهذا لا يمثِّلُ إلاَّ القليلَ من الحقيقة.

- صُوَر الحلم فريدة في نوعها، ولا تتكرَّر ليتسنَّى للحالم التَّدقيق فيها.
- مشاهد الحلم ليست مسلسلاً واقعيًّا بحيث تسهل متابعته، بل مجموعة حلقات مستمدَّة من حوادث متفرِّقة في الزَّمان والمكان.
- صُوَر الحلم عادة ما تكون عرضة للنّسيان.

ثانيًا – الحلم يشوِّه الواقع وهو غير أمين: فهو ليس تذكُّرًا واعيًا عاديًّا لحادثة معيَّنة ليتدخَّل فيها المركز ويُبقي على واقعيَّتها، بل تذكُّرٌ حرٌّ يستعيرُ بعضَ مواده من هنا، والبعض الآخر من هناك، فتتضخَّم بعض الأمور وتُقلِّلُ أهمِّيَّة أمورٍ أخرى، تزاد إليه تارةً موادُّ جديدةٌ، وتُنتقصُ منه طورًا موادُّ قائمةٌ، فيتشوَّه بذلك الواقع ويصبح الحلم غير أمين.

ثالثًا – الحلم عرضة للنّسيان: الحلم يُنسى عادةً، وبسرعة. فعلاوةً عن الأسباب الَّتي تصبغ صُوَر الحلم بعدم الوضوح، والَّتي هي، أيضًا، أسبابٌ تساعد على النّسيان، هناك أسباب أخرى، نذكر منها الآتي:

- بعض حلقات الحلم تضيع قبل اختزانها، فتفقد مقاطعُه تماسكَها، وتأخذ بالتَّناقص.
- والحلم لا يتطابق عادةً مع الواقع، فيصعب عندها تذكُّرُه لأنَّ الواحد منَّا مُعتادٌ على ما آلفَه في يقظته.
- إنَّ الحالم لا يُعير مادَّة حلمه اهتمامًا خاصًّا، ولا يعود إليها إلاَّ نادرًا؛ وإنْ فعل، كان ذلك فقط ليتذكَّر بعض الأمور الَّتي تستحوذ اهتمامَه.

رابعًا – الحلم فريدٌ في نوعه: كلُّ الأسباب السَّابقة تسمح لنا بالقول إنَّ كلَّ حلم هو حلم فـــريد وخاصٌّ بصاحبه، ولا يمكن أن ينظر إليه خارج هذا الإطار. حتَّى الحلم

الخاص بالواحد منا لا يمكن أن يتكرَّر بذاته مرَّةً ثانية، لأنَّ الذَّاكرة تتغيَّر بين لحظة وأخرى.

٧- الحالم

مَن يحلم؟

مبدئيًّا كلُّ النَّاس يحلمون وعلى نحوٍ متواصِل؛ ولكن، هناك مَن تكون أحلامهم عميقة ومثيرة يستفيقون على أثرها لتبقى متأجِّجة في خواطرهم ومؤثِّرة في أعماقهم. هؤلاء يُقال عنهم أنَّهم يحلمون كثيرًا، وهم، في الواقع، أكثر رهافةً على الحاسَّة السادسَّة، كما على واقع أحلامهم. ومنهم مَن تكون أحلامهم عاديَّة بسيطة لا توقظ اهتمامهم؛ ولو استفاقوا على أثرها لما أقلقَتهم أو، حتَّى، لما تذكَّروها. هؤلاء يقال عنهم إنَّهم لا يحلمون، وهم في الواقع لا يُعيرون أحلامهم انتباهًا ولا فطرة عندهم على الحاسَّة السَّادسة.

الفصلُ السَّابع
في السِّحر والسَّحَرَة

إنَّه لَمِن الطَّبيعي أن نقف أمام منضدة تحملُ بعض الأشياء العادية؛ ولكن، أن تظهر على تلك المنضدة، وبإشارة من أحدهم مَصحوبة بتمتمة خاصَّة، تفَّاحةٌ حمراءُ شهيَّة، لَهُوَ سحر.

وأن يتفحَّص أحدهم بنظره الصُّوَر الَّتي رسمَها "التِّفل" في فنجان قهوة لَهُوَ طبيعيّ. ولكن، أن يفسِّرَ تلك الصُّوَر بأحداث حاضرة أو غَيبيَّة تتراءى له حقيقةً، أو يبتكرها لفَرض إعجابه على الحاضرين لَهُوَ سحرٌ أيضًا.

وأن يقوم أحدٌ آخَرُ بطقوس خاصَّة تكريمًا لأحد الجان كي يقدِّم له خدمة معيَّنة، ويؤكِّدَ للجميع أنَّ الأخيرَ استجابَ طلبَه، فذاك، أيضًا، من السِّحر.

نستعرض في هذا الفصل تحديدَ السِّحر ومقوِّماتِه وأنواعَه على نحوٍ عامٍّ من دون الدُّخول في تفاصيله ومتاهاته؛ على أن نبحث لاحقًا مواضع الحقيقة ومواضع الخيال في كلِّ نوع منه.

١- بعض مُصطَلَحات

يظنُّ البعض أنَّ العالم زاخر بطاقات قادرة ومخيفة، وأنَّها خافية على الكثير من النَّاس. وأمَّا هذا البعض فيُمكنه الوصول إلى أسرارها، وبالتَّالي، تطويعها لخدمة الإنسانيَّة، أو لخدمة مآربه الخاصَّة. وفي ما يلي بعضُ هذه الطَّاقات:

١- **القوى الفيزيائيَّة:** القوى الفيزيائيَّة قوى موجودة في الطَّبيعة اكتشفتها الإنسانيَّة شيئًا فشيئًا، وأتمَّت تطويعها لخدمتها في مختلف الميادين. وهي، أي الإنسانيَّة، لا تزال تبحث عمَّا استعصى عنها من هذه القوى حتَّى يومنا هذا.

وقوام القوى الفيزيائيَّة الأشياءُ المحسوسة والمتغيِّرة بجميع أشكالها، والقوانينُ الَّتي تحكم علائقَها. فالحجر السَّاقط من علوٍّ هو جُزءٌ من الفيزياء، وكيفيَّة سقوطه وسبب

سقوطه كذلك، والضَّوء وانعكاساته وجميع خصائصه الأخرى، هي من الفيزياء، وكذلك الصَّوت والكهرباء والذَّرَّة...

٢- **القوى الطَّبيعيَّة الأخرى:** وهي الظَّواهر والأحداث الَّتي لم يستطعِ الإنسانُ السَّيطرةَ عليها وعلى مقدِّراتها على الرَّغم من أنَّه كشف أسرارها، كالعواصف العاتية، والصَّواعق، والبراكين، والزَّلزلات الأرضيَّة، والأنواء البحريَّة، والأمواج التّسونامِيَّة، والأمطار الطّوفانيَّة، والانزلاقات الأرضيَّة، والانفجارات الكونيَّة، إلى ما شابَهَ ذلك.
والطَّبيعيُّ، هنا، يترادفُ مع المادِّيِّ المَحسوس.

٣- **القوى غير الطَّبيعيَّة** *(Supernaturelle)*: وهي القوى الَّتي يظنُّ البعض أنَّها خلف القوى الطَّبيعيَّة وخلف بعض الظَّواهر الحياتيَّة الَّتي تتعلَّق بالإنسان على نحوٍ خاصّ، والَّتي لا يمكن للعلم اكتشافُها. وهي قوى غير محسوسة وغير مادِّيَّة تحرِّك الكون بإرادة نابعة منها أو بإرادة مِمَّن يمكن أن يكون ضابطها البعيد، كالأرواح والملائكة والجان والشَّياطين، وحتَّى الآلهة وأشباه الآلهة.
ويترادف غيرُ الطَّبيعيّ، هنا، مع اللاَّمادِّيِّ اللاَّمَرئيِّ واللاَّمحسوس.

وقد أدخل بعض السَّحرة الكبار قوًى أخرى ادَّعوا وجودَها. فـــ "أليستِر كراولي" تحدَّث عن نفسٍ خفيَّة (أيواس)، قال إنَّها أملَت عليه كتبَه وتعاليمَه (تيليما). وأكَّدَ أنَّ إدراك هذه النَّفس كفيلٌ بالاتِّحاد مع "الكلّ" ممَّا يُتيح للشَّخص السَّفر عبر الكون وتحقيق مُراده وكلِّ رغباته، من الدُّخول إلى قلوب النَّاس وعروق الأشجار وقلب الأرض والعودة بروحٍ شفَّافةٍ نقيَّةٍ إلى دُنياه.
والمعلوم أنَّه، للوصول إلى ذلك الإدراك، لا بدَّ من اتِّباع طقوس خاصَّة (يوغا واستحضار أرواح وما شابَه).

٤- **الأسرار:** الأسرار ظواهرُ طبيعيَّةٌ وحياتيَّةٌ لم يجدِ الإنسانُ، بعدُ، أجوبةً عن التَّساؤلات الَّتي تثيرها.

فالكون سرّ. فماذا عن نهايته؟ وما يأتي بعدَه؟ وما يوجَد إلى جانبه؟

والحياة سرّ، والموت سرّ، والإنسان سرّ. فما الموت؟ ونحن، إلى أين نحن سائرون؟ ولماذا وُجِدنا؟

الأديان أعطت تفسيراتِها الخاصَّةَ لبعض هذه الأسرار، ولكنَّ هذه التَّفسيرات بقيت متعلِّقةً بالإيمان. فمَن آمن عليه القَبول بها من دون سؤال. وأمَّا العِلم فيقف على مسافة منها، يتأمَّلها كي يجدَ الجانب الملاءم الَّذي يمكِّنه من وُلوجها والبحث فيها، وبالتَّالي، إيجاد ما يشفي الغليل.

ونُشير، في هذا السِّياق، إلى أنَّنا قد تطرَّقنا إلى هذه المواضيع في دراساتٍ سابقة مرتكزة على نظريَّة التَّأثير النِّسبيَّة. وعلى مَن يودُّ الاطِّلاع عليها الرُّجوعُ إلى تأليفاتنا المنشورة (الإنسان)، مع العلم أن هذا الكتاب يتكلَّم على مضمون النَّظريَّة وعن بعض مستخلصاتها على نحوٍ موجَز.

٥- **الغيب:** الغيب هو ما غاب عن الإنسان سابقًا أو يغيبُ حاضرًا أو سيغيبُ مستقبلاً. والغيب ليس هو هو عند كلِّ النَّاس؛ فما غاب عن أحدهم ليس بالضَّرورة الشَّيء نفسه الَّذي غاب عن غيره. فإن كان قَدَرُ ولدي في الغد قد غاب عنِّي، وقَدَرُ رئيس بلادٍ قد غاب عن قومه، فكيف لغيبي أن يتقارب من غيب غيري؟

٢- في السِّحر والسَّحَرَة

السِّحر اسمٌ يُطلق على بعض الوقائع الخارقة أو شبه الخارقة الَّتي تبرز للبعض وكأنَّها غير طبيعيَّة أو غير منطقيَّة أو، على الأقلّ، يصعب إيجادُ تفسيرٍ لها.

والسِّحر الَّذي نبحث فيه ينطلق من مَيل الإنسان على نحوٍ عامّ، وبعض النَّاس (السَّحَرَة) على نحوٍ خاصّ، لامتلاك العالم الطَّبيعيّ (الحوادث والأشياء والظَّواهر) من خلال وسائل مُتاحة غير عاديَّة. فهم يعملون على إخضاع القوى الطَّبيعيَّة وغير الطَّبيعيَّة لسُلطانهم بطرق مختلفة ولأهداف متنوِّعة، ليُصبحوا قادرين، على حَدٍّ زَعمهم، على حلِّ الكثير من القضايا العالقة، وعلى التَّنبُّوء بالغيب، وعلى تغيير قَدَر الإنسان، وبخاصَّةٍ على امتلاك القوَّة الَّتي تضمن لهم فرضَ إرادتهم على النَّاس والعالم لِما هو في مصلحة الإنسانيَّة ومصلحتهم الخاصَّة.

ولقد ابتكر السَّحَرَة لعبة التَّواصلات والمعادلات الكونيَّة، ووضعوها على شكل لوحات تتضمَّن علاقة الكواكب ومراكزها بالمعادن والألوان وغيرها، وأدخلوا عليها لاحقًا الزَّمان والمكان والبرج والأرقام، وحتَّى العطور والطبائع؛ وأصبحوا قادرين على التَّنبُّوء في حظوظ الحبِّ والموت والحرب. وابتدعوا، بعد ذلك، السَّائلَ الكونيَّ (الأثير) الَّذي يربط موجودات الكون بأكملها بوَحدة تواصليَّة وتأثيريَّة ممَّا يسمح للسَّاحر أن يسبح فيه إلى المكان الَّذي يشاء، وفي الزَّمان الَّذي يشاء، فيتمكَّن من استبدال جسمه بجسم إنسانٍ آخر، ويرى، بذلك، ذاتَه بمنظارٍ خارجيّ.

والآلات الَّتي يستعملها السَّحَرَة أو الَّتي استعملوها لها أيضًا زينتها الخاصَّة، وقواعدها الخاصَّة المستمدَّة، عميقًا في التَّاريخ، من كبار قدامى السَّحَرَة؛ وكذلك الأمر بالنِّسبة إلى الكلام والغناء.

وبما أنَّ النَّاس العاديِّين هم في خوف وقلق دائم ممَّا ينتظرهم، فقد آمنوا بالسَّحَرَة ونظروا إليهم كخشبة خلاص وكوسطاء بين القوى القادرة وبينهم. وهذا المنظور ما زال يدغدغ عقول الكثيرين حتَّى يومنا هذا، وسيبقى كذلك مهما تطوَّرتِ الإنسانيَّةُ وتقدَّمت.

حتَّى الأديان التَّوحيديَّة استخدمت السِّحر لتَمتيـــن الإيمان عند النَّاس. فموسى شـــقَّ

البحر بعصاه، ويشوع أوقف الشَّمس، وهارون، أخو موسى، أرسل الأفاعي السَّامَّة إلى أعدائه. وأمَّا العائلة المقدَّسة فاستقبلتِ المَجوس (سَحَرَة) في المغارة الَّتي وُلدَ فيها المسيح بعد أنِ اهتدوا إلى طفل المغارة عن طريق النُّجوم؛ فيما اعترف الإسلام بالجنِّ والعفاريت وغيرها من قوى الظَّلام وجعلها في أنواعٍ وطوائف.

٣- ركائز السِّحر

يقوم السِّحر على نظريَّات مختلفة تبعًا لنوعه وهدفه؛ وعلى السَّاحر، بالتَّالي، التَّعامل مع قوى مختلفة تتطلَّب منه القيام ببعض العروض الخاصَّة، ممَّا يحتِّمُ عليه الإلمام بالقوانين الطَّبيعيَّة والنُّفوس البشريَّة، وامتلاك قوى عقليَّة قادرة ومهارات جسديَّة ملائمة. ومن هذه المقوِّمات نذكر الآتي:

أوَّلاً – الرَّكائز الخارجيَّة (أي الخارجة عن الذَّات):

- القوى الفيزيائيَّة الطَّبيعيَّة.
- العناصر الكيميائيَّة وتفاعلاتها.
- الأرواح (مخلوقات ذكيَّة من غير جنس الإنسان، كالجانّ والملائكة والشَّياطين).
- القوى السِّحريَّة الموجودة في كلِّ الأشياء، وهي قوى غامضة لا تستطيع التَّعامل معها إلاَّ النّخبة من السَّحَرَة.
- الكلمات والرَّموز، وما تمثِّله من قوى.
- التَّأثير المتبادَل بين عناصر الكون، وهو ترابط غامض بين القوى الكونيَّة المنظّمة بصورة منافية للقوانين الطَّبيعيَّة ولمجريات الأمور.
- الوحدة في الكلّ؛ فكلُّ شيء، مهما كان صغيرًا، له تأثيره على الكلّ، والكلُّ له تأثيره على كلِّ شيء.

ثانيًا – الرَّكائز الدَّاخليَّة: وهي قدرات عمليَّة وملكات فكريَّة وُجب أن يتَّصف بها السَّاحر ليواجهَ قوانين الكون، بدءاً من الحقيقة الظَّاهرة وصولاً إلى ما وراء المادَّة المُبهَم، وكذلك ليحدِّدَ الرَّوابط الخفيَّة بين الوقائع الملموسة والظَّواهر الغيبيَّة؛ ونذكر منها:

- خفَّة اليد: يقوم السَّاحر بصرف الأبصار عمَّا يتعاطاه بخفَّة يده.
- التَّركيزُ الفكريُّ والتَّأمُّل: يوغا وتَخاطُر.
- قوَّة العقل غير الواعية، أو قوَّة اللاَّوَعي.
- التَّخَيُّل.
- سلاسة النّطق.
- قوَّة الإقناع.
- الخداع.
- الإرادة والإقدام.
- القدرة على الإيحاء.
- التَّعامل مع الحاسَّة السَّادسة.
- قوَّة الشَّخصيَّة، وهي ملكة تظهر بحضور الإنسان العفويّ البالغ التَّأثير، بتدخُّله العفويّ عند أيِّ إشكال يصادفه، وبالكلمة الأولى الَّتي ينبري بالنّطق بها، وبالصَّوت الجهوريّ الَّذي يُصدره؛ كما تظهر بمظهر الرَّجل القويّ الَّذي لا يهاب المستجدَّات والمُتَحلِّي بثقافة عميقة وقدرة على اجتراح الحلول السَّريعة للمشاكل المستجدَّة.
- القدرة على التَّنويم المغناطيسيّ؛ وهو نوع من الإيحاء على النَّوم مصحوب بتأثيرات حركيَّة أو كلاميَّة أو صوتيَّة رتيبة تساعد على الاسترخاء (أنظر لاحقًا).

- القدرة على تحريك الأشياء من بعد، من دون المساس بها.
- القدرة على السَّيطرة على عقول النَّاس، والتَّحكم بها.
- القدرة على رؤية أحداث من مِسافات بعيدة، أو أحداث قديمة، أو على التَّنبُّوء بالمستقبل.
- التَّأثير القادر على التَّجمُّعات الكبيرة.

٤- مُستَلزمات السِّحر المادِّيَّة

يتطلَّبُ السِّحر، لإتمام أهدافه، عناصرَ مادِّيَّةً ومهاراتٍ فنِّيَّةً نُعدِّدُ منها الآتي:

- كلمات سحريَّة خاصَّة، منها القادرة على إتمام السِّحر، ومنها القادرة على تطويع الأرواح.
- كتابات ورموز غامضة.
- دوائر سحريَّة تخطّ على الأرض.
- الآت موسيقيَّة.
- أوانٍ خاصَّة بالطُّقوس وبالشَّعائر المتَّبَعَة.
- بعض المأكول والمشروب المحضَّر بطرق غريبة.
- عناصر مشمومة كالعطور أو معقودة (يُمكن عقدها والنَّفث فيها).
- مساحيق للنَّثر وسوائل للرَّشّ.
- طلاسم فيها أسماء وكلمات وحروف وأرقام مجهولة المعنى لغير السَّحَرَة (أنظر الطَّلاسم لاحقًا).
- بعض الآلات الخاصَّة برَصد النُّجوم والكواكب، ومواعيد اقتران بعضها بالبعض الآخَر، ومعرفة ما يترتَّب عليها من هيجان البحر وغيره من تأثيرات أرضيَّة وكونيَّة.

- أحجار كريمة وحُلًى ذهبيَّة.
- زيوت ونباتات.
- صور وإيقونات.
- بخورٌ خاصٌّ لاستِحضار الأرواح.

ومن الرُّموز المستعمَلَة نذكر:

- الماء للخصب والعذريَّة؛
- النَّار للحرارة والبطش؛
- العود القائم للرجوليَّة والأحاديَّة؛
- العود النَّائم للمرأة والسَّلام؛
- الدَّائرة للشَّخصيَّة المتنامية؛
- الصَّليب المُشِعّ في جهاته الأربع؛
- القرن لإشعاع القوَّة.

٥- أنواع السِّحر

إختلف السِّحر قديمًا بطرقه؛ وأمَّا أهدافه فكانت هي هي تقريبًا عند كلِّ الشُّعوب. ولكن، عندما أخذتِ الأمم يتَّصل بعضُها بالبعض الآخَر، أخذ السِّحر يتأمَّم، وراح السَّحَرَة يتطلَّعون إلى فنون بعضهم البعض الآخَر. لكنَّ السِّحر بقي أنواعًا بحَسَب تعدُّد الأهداف والوسائل.

فهناك السِّحر الأبيض *(Magie)* الَّذي يحاول استحضار قوى السَّماء الخَيِّرَة لنصرة الأبرياء والمُستَضعَفين وهداية الضَّالِّين. وهو بذلك يعمل على ربط السَّماء بالأرض لخَير الإنسان وصَلاحه. وسحرةُ هذا النَّوع هم من الأنبياء والمُرسَلين.

وهناك السِّحر الأسود القائم على التَّحالف مع آلهة الجحيم وقوى الظَّلام وعلى وقع طقوس لا تمتُّ إلى القِيَم الرُّوحيَّة والإلهيَّة بأيَّة صلة. وممثِّلو هذا النَّوع من السِّحر هم من السَّحَرَة التَّوَّاقين إلى النِّفاق، والكهَّان الأشرار، وأتباع الظَّلام.

وتأتي بين هذه الفئة، وتلك، فئات معظمها يدعو في الظَّاهر إلى مساعدة الإنسان على أخذ المبادرة لحلِّ مشاكله، ويهدف في الخفاء إلى توخِّي منافع شخصيَّة وعاطفيَّة غرائزيَّة، أو مكاسب ماليَّة، فهناك:

- سحر التَّخَيُّل والأخذ بالعيون بألعاب سحريَّة عن طريق التَّحكُّم بقوانين بصريَّة ونفسيَّة *(Prestigiditateur)*.
- سحر الأعمال العجيبة بتقنيَّات يدويَّة وذهنيَّة.
- سحر الاستعانة بخَواصِّ النَّباتات والأدوية.
- سحر استِحضار أرواح الموتى.
- سحر علم الغَيب.
- سحر علم الحدس.
- سحر التَّسلُّط على عقول الضَّحايا.
- سحر استِحضار الشَّياطين والجنّ.
- سحر الكنعانيِّين في عبادة الكواكب.
- سحر السَّفَر الكونيّ.
- سحر الطَّلاسم.
- قراءة الطَّالع.

٦- السِّحر والدِّين

كان الاعتقاد بدور السَّاحر كعامل في التَّأثير على الطَّبيعة سائدًا عند معظم الشُّعوب

القديمة. وهذه لم تكن آنذاك على اتِّصال، بعضُها بالبعض الآخَر، ممَّا يدلُّ إلى اهتمام النَّاس، على اختلاف مَشاربهم، بتَحَرِّي المجهول، وبالاطمئنان إلى قَدَرهم وحماية نفوسهم.

ولمَّا تمَّ القول بآلهة توجِّه قوى الطَّبيعة، ثمَّ بآلهة وراء كلِّ سبط وكلِّ قرية، بات النَّاس يعتقدون أنَّ الأمراض والآفات وسوء الطَّالع والتَّعاسة والموت هي من أشكال غضب هؤلاء الآلهة، وأنَّ السَّحَرَة هم وسطاء بينهم وبين تلك الآلهة؛ فقَوِيَ نفوذُ السِّحر وتسلَّط رجالُه على مقاليد الحكم.

وعندما تحوَّل رئيس القبيلة إلى ملك أو أمير، تحوَّل بعض السَّحَرَة المحظوظين إلى كهنة معابد مؤمنين بالعلوم الخفيَّة، ينقلون تعاليم الآلهة إلى مجتمعهم، وتسكَّع الباقون في أزقَّة المدن ينتظرون الفرص المؤاتية لاستعادة أمجادهم. فانفصل بذلك السِّحر عن الدِّين، والدِّين عن السِّحر، من دون أن يكون هناك من فرق بينهما سوى في مستوى المسؤوليَّة، وفي درجات الطَّبقيَّة الاجتماعيَّة. وأمَّا الأهداف والوسائل فبقيت هي هي، حتَّى إنَّه أصبح لكلِّ تطوُّر في السِّحر أثره في الدِّين، ولكلِّ تطوُّر في الدِّين أثره في السِّحر، فتحصَّنت بذلك قوَّة السِّحر والسَّاحر.

بعدها انتشرت الأديان الموحِّدة فاستبدلت الكهَّانة بكهنةٍ وشيوخٍ وحاخامات، وتحوَّلتِ الهياكل الوثنيَّة كنائسَ وجوامعَ وكنيسات. وأمَّا الطُّقوس والشَّعائر الجديدة فحافظت على الكثير من العادات القديمة: فالشُّعوب لا تستطيع التَّخلُّص من تاريخها ومعتقداتها بسهولة، وقد أدخلت من هذه المعتقدات ما أمكن على الدِّيانات الجديدة. فالبخور والشُّموع والخطب والتَّجمُّعات والألبسة المميّزة قلَّما تبدَّلت.

ولا بدَّ لنا، للتَّأكيد على ذلك، من أن نشير إلى ما سبقَ وتحدَّثنا عنه من أنَّ نشأة الدِّيانات الموحِّدة ارتكزت على السِّحر لتفرض صحَّة عقيدتها، فيما هي، اليومَ، براءٌ من السِّحر والسَّحَرَة.

٧- لمحة عن تاريخ السِّحر وأثره في الأدب العالميّ - أنواع السِّحر

أصول السِّحر متجذِّرة عند كلِّ الشُّعوب القديمة، عند الفراعنة وشعوب ما بين النَّهرَين، في الهند والصِّين، عند الهنود الحُمر والمغول، وغيرهم.

فلقد تعلَّم الكلدانيُّون مراقبة النُّجوم، وراحوا يقدِّرون تأثيرها على الإنسان، واستخلصوا الكثير من المعادلات الَّتي أبقوها أسرارًا ضمنَ مجموعاتٍ صغيرةٍ مُنعَ وُلوجُها عن كلِّ طارئٍ دَخيل. وقد أخذ السَّحَرَة المُلِمُّون بهذه الأمور مراكزَ مرموقةً ميَّزَتهم عن عامَّة الشَّعب الجاهل.

وأمَّا اليونانيُّون فقسَّموا السِّحر إلى نوعَين:

- سحر عبادة الشَّمس، ويضمُّ أولئك الَّذين يبحثون عن أسرار الحياة باتِّصالهم بالآلهة، وكان لهم دورٌ هامٌّ في الحياة الاجتماعيَّة والمدنيَّة والعسكريَّة.
- سحر عبادة القمر المقتَصَر على النِّساء، ويمثِّل قوى الظَّلام.

وأمَّا الرُّومان فأخذوا الكثير من مقوِّمات السِّحر عن أسلافهم اليونان، وزادوها إلى ما كانوا يؤمنون به؛ لا بل ذهبوا إلى بلاد ما بين النَّهرَين ومصر ليتعرَّفوا عن كثب على ما لدى شعوب تلك البلاد من فنون السِّحر؛ كما أقاموا الألعاب والمباريات على شرف الآلهة، وسفكوا الدِّماء لإروائها. وقد واكب السِّحر الأسود التَّقدُّمَ الرُّوحانيَّ وكثُرَ أتباعُه.

العرب، بدورهم، أبدعوا بطقوسهم السِّحريَّة؛ لكنَّ الإسلام حارب السِّحر، وأعطى سلطانه للضَّالعين في فِقه الدِّين ونظرته إلى الدُّنيا.

وكانت للعالم الغربيِّ أيضًا ثقافتُه السِّحريَّة الخاصَّة. لكنَّ السِّحر انكمش في هذا العالم في عهد النَّهضة عندما قويت شوكةُ الكنيسة. فحورِبَ السِّحر، وحُرِقَ الآلاف

من المشعوذين وذوي العاهات والأقزام، إذ ظُنَّ أنَّ الشَّياطين كانت تسكنهم. وعند التقاء ثقافات الغرب بثقافات الشَّرق، وبخاصَّة ثقافة الهند، في أوائل القرن الثَّامن عشر، عاد للسِّحر بريقه، وبدأ ولعٌ جديدٌ به وبطقوسه.

وكان لا بدَّ، مع العَصرنة والفلسفة المادِّيَّة، من العودة إلى الماضي؛ فعادت أساطير السِّحر تغذو كتابات الأدباء. وهي لا تزال حتَّى اليوم تُلهم الكبار والصِّغار: فالقصص الحديثة والأفلام السينمائيَّة أخذت منها مادَّةً دسمةً في عروضها؛ وحوريَّات البحر، وبساط الرِّيح، وفانوس علي بابا السِّحريّ، أمورٌ لا تزال تسحرنا، ودراكولا والذِّئاب البشريَّة ما انفكَّت تثيرُ فضولَنا.

الفصلُ الثامن
تحضيرُ الأرواح

يقتصر البحث في هذا الفصل على تحضير أرواح الموتى، على أن يتمَّ البحث في تحضير بقيَّة الأرواح في الفصول اللاَّحقة.

١- تحضير الأرواح *(Nécromancie)*

ظنَّ بعض النَّاس أنَّ أرواح الأقرباء والأحبَّاء المتَوَفَّين تسبح بالقرب منهم. فانكبُّوا على استنباط الطُّرق والوسائل للتَّواصل معها. وراح بعضهم يؤكِّد على التَّوصُّل إلى ذلك المُبتَغى عن اقتناعٍ ذاتيٍّ أو عن مكر، واستطاع إقناع الكثيرين من النَّاس بما ابتدعه من طقوس لاستِحضار هذه الأرواح، وألزمَهم باللَّحاق به في دروبها الملتوية، إمَّا لخدمةٍ بريئة، وأمَّا لابتزازٍ ماليّ.

تحضير الأرواح بعامَّة، وبمفهومه التَّاريخيّ، هو عمليَّة معقَّدة يقوم من خلالها محضِّر الأرواح، أو الرَّاقي، أو الكاهن، بطلب حضور روح معيَّنة لعقد اتِّفاق معها. فإن كان هذا الاتِّفاق يهدف إلى الخَير كانت الرُّوح روحًا طيِّبة من ملاك، أو جنٍّ صالح، أو روح إنسان مُتَوَفًّى عُرف بأعماله البارَّة. وإن كان يهدف إلى الشَّرّ، كانتِ الرُّوح روحًا شيطانيَّةً تابعةً لعفريتٍ أو جنٍّ شرِّير.

٢-خرقوسُ تحضير أرواح الموتى وأهدافُه

تُعقد جلسات تحضير الأرواح بطقوس مختلفة تبعًا للرَّاقي والبلد الَّذي ينتمي إليه. فقد يجلس المجتمعون حول طاولة مُمسِكي الأيدي، أو قد يقفون بشكلٍ دائريّ، ثمَّ يقوم الرَّاقي باستحضار الرُّوح إمَّا بتمتمة مُبهَمَة، وإمَّا بصوتٍ عالٍ يطلب فيه من الرُّوح إعطاء إشارة لحضورها. بعدها يتَّفق معها على كيفيَّة التَّواصل معها إمَّا بالطَّرق على الباب مرَّةً واحدةً للموافقة ومرَّتَين لعدم الموافقة، وإمَّا بلفح الهواء، أو ما شابَه ذلك.

وأمَّا أهداف تحضير أرواح الموتى فنُورد بعضها ههنا:

- التَّواصل مع أرواح الأحبَّاء والأقرباء للشُّعور بالقرب منهم.
- التَّواصل مع الأرواح لسؤالها عن بعض الأشياء المفقودة أو عن كنوز مَطمورة أو ما شابَهَ ذلك.
- التَّضرُّع لها للمساعدة على تجاوز محنة مرضٍ أو ألمٍ أو فشلٍ أو يأس.

٣- الرُّوح

للبحث عن الحقيقة في تحضير الأرواح، فلنُكَوِّن أوَّلاً فكرةً، ولو بسيطةً، عن ماهيَّة الرُّوح.

لقد نظر الإنسان القديم إلى الظَّواهر الطَّبيعيَّة الَّتي كان يخضع لها، وهالَهُ أمرُها. فابتدع لها قوًى وأبطالاً وبشرًا خارقين. وعندما ابتدأ يهتدي، حوَّل تلك القوى أرواحًا من دون تحديد كينونتها.

ثمَّ نظر إلى نفسه، وهالَهُ أن يموت؛ وبحث ونقَّب عن معنى الموت، ثمَّ اجترح لنفسه روحًا أعجبَه القولُ عنها إنَّها تفارق الجسد عند الممات لتعودَ بعد رحلة طويلة لملاقاة الجسد، وإعادته إلى الحياة. فأصبحتِ الرُّوح عندَه محرِّكَ الجسد وصلةَ الوصل بينه وبين خالقه، وفي الوقت عَينه، رمزَ دَيمومته.

فَمَ الرُّوح؟ إذا كانتِ الرُّوح مَوجودًا ماديًّا، كان لا بدَّ لها من أن تؤثِّر في الإنسان وأن تظهر له؛ وهذا ما لم يكُن. وعليه، فلا وجودَ ماديًّا لها. وإن كان للرُّوح وُجودٌ لامادِّيّ، فلنَبحث عن معنى هذا الوجود. فإن فهمنا أنَّ للرُّوح وجودًا آخَر، قُلْ وجودًا غيرَ مادِّيّ، فذلك يعني أنَّ لها تأثيرًا لامادِّيًّا على الإنسان؛ ولكان هذا الإنسان شعر بوجودها، ولكان أصبح التَّواصل معها مُمكنًا من قِبَل كلِّ النَّاس. ولكن، هذا أيضًا، ليس بصحيح.

بعض النَّاس لا يؤمنُ بالرُّوح. وعليه، فوجودها فَرَضيٌّ غيرٌ مُطلَق؛ أي أنَّها توجد وجودًا تأثيريًّا بالنِّسبة إلى النّخبة الَّتي يُقالُ إنَّ الله اصطفاها من بين كلِّ البشر، وعلى مرور الزَّمن، لتكون رسلَه وأنبياءَه.

الرُّوح، في "نظريَّة التَّأثير النِّسبيَّة"، واضحةٌ أكثر؛ ولجلاء كنهها، فَلنَبحَثْ أوَّلاً في مثالٍ يوضح لنا الأشياء، ويقرِّب الأمور إلى عقولنا. فإن سألت الدَّارسين عن ذاك الَّذي يحرِّك السُّفن في البحار أجابوك أنَّ هناك قوَّة تدفعُها مُتَأتِّية من طاقة تختزنُها في الوقود. وإن سألت هؤلاء العلماء عن تحديد الطَّاقة لعجزوا عن الجواب ما لم يكونوا ضالعين في علم الفيزياء.

فالطَّاقة لا وجودَ ماديًّا لها، بمعنى أنْ لا صفات لها، ولا خاصِّيَّات ماديَّة كالقول مثلاً إنَّها سائل أحمر نستطيع تعبئته في قوارير زجاجيَّة أو مكعَّبات صفراء يمكن تخزينُها في أكياس ورقيَّة لاستعمالها وقتَ الحاجة.

الطَّاقة مفهومٌ علميٌّ ابتكرَه الإنسان للدَّلالة على قدرة شيءٍ ماديٍّ على تغيير صفة أو خاصِّيَّة في شيءٍ ماديٍّ آخر. فنقولُ مثلاً إنَّ المصباح المُضيء لديه طاقة لأنَّه قادرٌ على تغيير إضاءة الغرفة، وإن الرِّيح لديها طاقة لأنَّها قادرةٌ على دفع سفينة شراعيَّة، وإنَّ قطعة معدنيَّة ساخنة لديها طاقة لأنَّها قادرةٌ على رفع حرارة ماء باردة.

فكأنَّنا نقول إنَّ الطَّاقة هي علَّة التَّغيير، أو هي الَّتي تسمح لشيءٍ ما بتغيير خاصِّيَّة في شيء آخر، وذلك بالرَّغم من أنْ لا وجودَ ماديًّا لها، ومن أنَّه، عندما ينفذ مخزون الشَّيء القادر (وقود السفينة)، تتلاشى الطَّاقة، ويفقد الشَّيء قدرته على التَّأثير. فكأنَّ الطَّاقة كائنٌ وجوديٌّ غير مَرئيٍّ يعملُ من خلال الشَّيء على التَّأثير على الأشياء الأخرى؛ ثمَّ ينفلت من هذا الشَّيء تاركًا إيَّاه فارغًا عاجزًا. والواقع أنَّ ما هو موجود هو ما يُنعت باختزان تلك الطَّاقة، أي الشَّيء نفسه، وأنَّ الطَّاقة تنفذ

منه لأسباب مادِّيَّة (نفاذ الوقود أو غيره). وعليه، فالطَّاقة لا يمكنها فرضُ الأمور على صاحبها أو التَّدخُّل في حيثيَّاته، بل تبقى فقط رمزًا لقدرته التَّأثيريَّة.

فالطَّاقة لا وجودَ لها.

وعلى الأنموذج عَينِه تُمكنُنا مقاربةُ الرُّوح.

فالرُّوح هي مفهومٌ ذو وجودٍ فكريّ، لا وجودَ مادِّيًّا لها. وهي ترمز إلى قدرة الإنسان بخاصَّةٍ، وكلِّ كائنٍ حيٍّ بعامَّة، ليس فقط على تغيير خاصِّيَّة في شيء آخر، بل على تغيير خاصِّيَّة في الكائن نفسه. فهي حالة عامَّة لصاحبها تختزلُ ميِّزات الكائن الحيّ الأساسيَّة (عناصر الحياة)، وتبقى كلَّما بقيت تلك الميِّزات، فيما تتلاشى في العَدَم عندما تُفتَقَد.

ثمَّ إنَّ الرُّوح ليست شيئًا لتتعامل مع المادَّة، وبالتَّالي، ليست هي المسؤولة عن تصرُّفات الفرد؛ وهي لا تسيِّرُه ولا تتغيَّرُ بتغيُّره، وبخاصَّةٍ، لا تتعلَّم. فهي، فقط، رمزُ الحياة لديه. ونحن، إن ظنَنَّا أنَّها هي الَّتي تحرِّك الإنسان، نُخطئُ بذلك.

كما أنَّ القول إنَّ الرُّوح هي الَّتي تسمح للإنسان بالتَّفكير هو قولٌ خاطئٌ أيضًا. فالتَّفكير ما هو سوى ردِّ فعلٍ داخليٍّ للدِّماغ من جرَّاء تأثيرات داخليَّة أو خارجيَّة، وقُلْ إنْ شئت نتيجةَ النَّشاط العقليِّ المادِّيّ.

فالرُّوح لا وجودَ تأثيريًّا لها.

٤- حقيقة تحضير الأرواح

لا يمكن الاتِّصال بالأرواح لأنَّها غير موجودة تأثيريًّا، وبالتَّالي، لا يمكن تحضير ما هو غير موجود. ثمَّ هي أرواح، ولا مكان للأرواح لتُحَضَّر ولا زمان. ولا تُمكن رؤيتُهـــا ولا يُمكن التَّأثُّـــر بها. وكلُّ ما قيل ويقـــال عن شرعيَّتها المادِّيَّـــة هو من

الأباطيل والجلسات الَّتي تعقد في هذا المجال إنَّما هي للتَّدجيل والتَّغرير بالنَّاس.

تحضيرُ الأرواح هرطقةٌ من قبل ضعفاء الإيمان، وجلساتُها:

- أمَّا أن تكون تمثيليَّات يوهِمُ فيها الرَّاقي نفسَه، والنَّاسَ الَّذين معه، بأنَّ ما يقومُ به هو فعلاً حقيقة.
- وأمَّا أن تكون صيغة توارثَها الرَّاقي، وآمنَ بحقيقتها بعفويَّة ساذجة.
- وأمَّا أن تكون ضربًا من الشَّعوذة يهدفُ إلى ابتزاز النَّاس وكسب أموالهم بطريقةٍ غير شريفة.

٥- تداعيات تحضير الأرواح

ظاهرة تحضير الأرواح متفشِّية عند الكثير من الشُّعوب. بعضهم يؤمنُ بها إيمانًا راسخاً، والبعضُ الآخر يمتهنُها تمثيليَّاتٍ لكَسب المال. وفي كلا الحالَين، فإنَّ تداعياتُها على القائمين بها عادةً ما تكون غير مستَحَبَّة وغير سليمة. فإن كان محضِّرُ الأرواح جادًّا في ما يقوم به، فقد يروح في نزعةٍ تُبعدُه عن الرَّزانة العقليَّة، إذ تأخذُه تخيُّلاته نحو التَّطرُّف والتَّسلُّط ليصبحَ تصرُّفه غريبًا. وأمَّا إذا كان ممَثِّلاً فنَّانًا، فسلوكه في الضّحك على النَّاس غير مَحمود، وقد يؤدِّي به إلى نتائجَ هو بغنًى عنها.

وأمَّا تداعيات تحضير الأرواح على الأشخاص الَّذين هم برفقة الرَّاقي، فالخوفُ في أن يُدمنوا على هذا النَّوع من الجلسات، فتَطولُهم، مع الوقت، الهَلوسَة.

وقد يُؤتى، في سياق تحضير الأرواح، على ذكر أسماء أشخاص لا علاقة لهم بهذه الطُّقوس؛ ولكن، قد تطولُهم أمور غير مستَحَبَّة من جرَّاء الحاسَّة السَّادسة إن كانتِ الظُّروفُ مؤاتية.

الفصلُ التاسع
الشَّعوَذة

١- القَدَر

القَدَر كلمة تدلُّ بحَسَب الدِّيانات التَّوحيديَّة إلى ما قدَّرَه الله أن يحصُل، وبالتَّالي، إلى مشيئة الله. وأمَّا عند عامَّة النَّاس، فالقَدَر يدلُّ إلى ما هو مَكتوب، أي ما هو مقدَّر أن يحصُل من دون ذكر القادِر. وهذا التَّحديد قد يوقعِ البعضَ في اللّبس، إذ قد يفهمُ هذا البعض القَدَرَ كأحداث حتميَّة لا بدَّ أن تقع، ويحسبُ ذلك على أساس منطق الظُّروف القائمة من دون الأخذ بعين الاعتبار ظهور ظروف جديدة غير متوقَّعة في اللَّحظات الأخيرة من الحَدَث، ممَّا قد يغيِّر مجرى الأمور؛ حتَّى إذا ظهر ظرفٌ جديدٌ لَقالوا إنَّ القَدَرَ قد تغيَّر.

وكي لا نقعَ في سوء الفهم عند استعمال كلمة القَدَر، سنعني بالقَدَر القَدَرَ الإلهيّ، أي الأحداث الَّتي حصلت والَّتي ستحصُل؛ وأمَّا في الحال الأخرى، فسنستخدمُ عبارةَ "سَير الأحداث".

فإذا كان سائق سيَّارة متَّجهًا إلى محلَّة زُرِعَت فيها عبوة ناسفة من دون علمه، ووصل إليها في اللَّحظة الَّتي انفجرت فيها تلك العبوة، لقُلنا إنَّ هذا هو قَدَرُه. وأمَّا إذا حصل واستوقفَه أحدهم قبل أن يبلغَ المحلَّةَ بثوانٍ، لقُلنا، كذلك، إنَّ قَدَرَه إن ينجوَ، وإنَّ سَيرَ الحَدَث المقدَّر تغيَّر في اللَّحظة الأخيرة.

وبعد هذا، تُصبح في إمكاننا الإجابةُ على السُّؤال الَّذي يُراود عقولَنا: هل يمكنُ القدرَ أن يتغيَّر؟

بالطَّبع لا. فالقَدَر بالمفهوم الَّذي اتَّفقنا عليه لا يتغيَّر. فكلُّ تغيير غير متوقَّع للحَدَث الحَتميِّ المقصود يدخــلُ في القَدَر. وأمَّا إذا أخذنا في عين الاعتبار سَيرَ الأحداث، فكلُّ إنسان قد يُساهم بتدخُّله المباشر أو غير المباشر في تصويب اتِّجاه هذا السَّير، وبالتَّالي، تغيير ما كان محسوبًا أمرًا حتميًّا.

٢ - الشَّعوَذَة

الشَّعوَذَة نوعٌ من السِّحر يهدفُ إلى تغيير القَدَر أو تصويبه، وذلك بممارسة طقوسٍ مختلفةٍ يتمُّ خلالها اعتمادُ كلماتٍ أو رموزٍ أو أشكالٍ أو أدواتٍ أو غيرها.

آمن كثيرٌ من النَّاس، منذ القِدَم، بالشَّعوذة؛ وما زال النَّاس يؤمنون بها حتَّى يومنا هذا، وبخاصَّةٍ أن تنوَّعت بطرقها ووسائلها وأهدافها. فكَثُرَ أتباعُها لدرجة أنَّنا نستطيع القول إنَّ كلاً منَّا أصبح مشعوذًا على طريقته الخاصَّة. وما لنا إلاَّ استطلاع تصرُّفاتنا أو تصرُّفات مَن حولنا عند أيِّ موتٍ مفاجئ، أو مرضٍ ثقيل، أو انقطاعِ مودَّة، أو غير ذلك من حالاتٍ مؤلمة. فطلبُ الرَّحمة والعون من الرُّسُل والأنبيـــاء والقدِّيسين هو شَعوذة، وأيُّ لعنةٍ نتفوَّه بها هي شَعوذة، وأيُّ نظرةٍ تنمُّ عن غضبٍ أو ضغينةٍ نرمقُ بها أحدهم هي أيضًا شَعوذة.

والشَّعوذة تعمل عادةً في السِّرّ، وتطول الإنسان، كلَّ إنسان، من حيث لا يدري. فهي تصلُه إمَّا مباشرةً، على نحوٍ فجائيّ، وإمَّا بـــ "جرعات" يتناولها أوَّلاً بأوَّل، من دون شعور. فالسِّحر يدخلُ الإنسانَ بالطُّرق الطَّبيعيَّة، ويفعل مفعولَه بالخفاء. وقد يصيبُ الإنسانَ في جسده (صحَّته، تصرُّفاته، تحرُّكه...)، أو في قواه العقليَّة، أو الوجدانيَّة (حبّ، بغض، كراهية...) من دون أن يترك أثرًا يدلُّ إليه. وعادةً ما تتغذَّى تأثيرات الشَّعوذة في أثناء النَّوم، إذ تصبح أكثرَ فاعليَّة.

والمُشعوذ، ويُقال له أيضًا السَّاحر أو الدَّجَّال أو الكهَّان أو العرَّاف، يزعمُ بإيمانٍ أو بدَجل، امتلاكَ السُّلطة لتغيير مقدّرات الأحداث. وهذا يتطلَّب منه أحيانًا إقامةَ شعائرَ وطقوسٍ مختلفةٍ تبعًا لنوع السِّحر وحيثيَّات أهدافه.

ولا بدَّ، أخيرًا، من الإشارة إلى وجوب التَّمييز بين الشَّعوذة والسِّحر الشَّيطانيّ، إذ إنَّ الشَّعوذة لا تتوسَّل الشَّيطان والأبالسة لبلوغ أهدافها. وهي، مع ذلك، تبقى في ناحيتها الشِّرِّيرة، كالسِّحر الشَّيطانيّ، مَحظورةً لدى الدِّيانات التَّوحيديَّة.

٣- الطَّلاسِم

الطَّلاسِم أشياءُ يُزعمُ أنَّها تعكس قوَّةً غير طبيعيَّة قادرةً على التَّأثير في النَّاس والأحداث والأقدار.

وقد تكون الطَّلاسِم كلمات يكفي التَّلفُّظُ بها، أو نصوصًا مكتوبةً بأحرف ورموز، أو أشياء عاديَّة كحجارة أو أزهار أو حلًى أو قطع قماش، أو أشياء غير عاديَّة كرأس سحلية مَيْتَة، أو بيت سلحفاة، أو شعر حاجب، أو شارب ذئب، أو أشياء نجسة كبَول بعض الحيوانات، أو دم الحيض، أو لُعاب كلب، أو دم فتاة مَيْتَة... ومن الطَّلاسِم ما يهدف للخَير، ومنها ما يهدف للشَّرّ؛ ومنها ما يعمل على تغيير قَدَر الإنسان، ومنها ما يعمل لحمايته من الأذى أو السِّحر، أو لمساعدته على مواجهة المِحَن.

١- تحضير الطَّلسَم

لا يصبحُ الشَّيءُ طَلسَمًا إلاَّ إذا تمَّ تحضيرُه على نحوٍ مناسبٍ مع الهدف المُتَوَخَّى منه، وبحَسَب قوانين التَّوافق الكونيَّة، أي التَّناسق بين كلِّ التَّأثيرات، وبخاصَّةٍ الفلكيَّة منها. وبعد أن يأخذَ العرَّاف المعلومات اللاَّزمة، يوضح مشروعه ويُحييه بكلمات أو إشارات أو كتابات مصحوبة بعبق البخور وغيره من المَساحيق، ويعكس على الطَّلسَم "إرادته" و"شغفه". فيصبح (أي السَّاحر) قادرًا على امتلاك الطَّاقة السِّحريَّة الَّتي اختزنَها الطَّلسَمُ أو الضَّيفُ الرُّوحيُّ الَّذي حلَّ فيه؛ ثمَّ يعملُ على توجيهه نحو الهدف الَّذي رسمَه. وفاعليَّةُ الطَّلسَم تتأتَّى من طاقة السَّاحر الشَّخصيَّة، وقوَّة إرادته، وعمق "شغفه" في التَّحضير.

٢- كيفيَّة استعمال الطَّلسَم

تُحرقُ الطَّلاسِم، أو تُدفَن في الأرض، أو تُعَلَّقُ على الأشجار أو البيوت أو على أعنـــاق النَّاس بحَسَب الطُّقوس؛ وإن كانت مـــن المأكـــول، يتـــمُّ إطعامُها الشَّخصَ

المَعنيّ، وإن كانت من المَشروب، إشرابُها إيَّاه، وإن كانت من المَرشوش، رشُّه بها، إلى ما هنالك...

٤- الحِجاب

الحِجاب لحَجب الشَّرّ؛ وهو نوعٌ من الطَّلاسِم يهدف لحماية إنسان مهدَّد بأذًى أو بمرض أو من طلاسِم يتعرَّضُ لسحرها.

والحِجاب "يُحضَّر" كالطَّلسَم ارتكازًا إلى المعلومات الَّتي يستقيها العرَّاف عن المريض. ويتمُّ ذلك في مجالس خاصَّة بعد توضيح الهدف والمَطلوب. والحِجاب المخطوط قد يحتوي أحرفًا وأرقامًا ومربَّعاتٍ غير مفهومة، وأحيانًا جملاً واضحةً تبيِّن الهدف الَّذي وُضع لأجله.

وقد يُصنع الحِجاب من قطع معدنيَّة أو عظام بعض الحيوانات، وأحيانًا من بعض الأشياء الغريبة كفروة قنفذ، أو منقار طير، أو قشرة حامض مجفَّفة. وهذه تعلَّق عن طريق أسلاك على السَّرائر، أو فوق أبواب المداخل، أو على أسوار الشُّرفات. وقد يُصنع كذلك من قطع فضَّة مَطروقة على شكل قدم أو عين أو قلب، أو خرزات زجاجيَّة ملوَّنة، ولاسيَّما بالأزرق، تُنَسَّق مع سلاسل لتعليقها في الأعناق.

٥- النُّذور

النّذرُ وعدٌ يقطعه الإنسانُ على نفسه وأمام خالقه ليتمَّ الإبرارُ به عندما تتحقَّق أمنية يَبتغيها؛ فقد يقومُ بعملٍ يؤذي به نفسَه مثلاً إذا برأ وليدُه من مرض مُستَعصٍ، أو قد يقدِّمُ بعض الحلى أو المال إذا عاد حبيبُه إليه.

٦- التَّعاويذ

التَّعويذة عبـــارةٌ عن كلمات أو كتابات مختلفة تهدفُ إلى تغييـــر أحـــوالٍ قائمةٍ أو

السَّيطرة على مقدِّرات شخصٍ ما أو عاملٍ ما. وقد تلُقى التَّعويذة المقروءة مرفَقَةً بأشياء خاصَّة يحضِّرُها العرَّاف خلال طقوسٍ يتمُّ خلالها استحضار القوى الرُّوحانيَّة القديرة، ممَّا يتطلَّبُ أحيانًا الصَّوم والصَّلاة، وأجواء تعبقُ بالرَّوائح والعطور وتشعُّ بالأنوار.

وقد يُكتفى في الحالات البسيطة بذكر الله أو بجُمَلٍ مُنتَقاةٍ من كتب الدِّين.

٧- قدرات المُشعوذ أو العرَّاف

يتعامل المُشعوذ مع المريض أو الضَّحيَّة إمَّا مباشرةً، وإمَّا عن طريق طلاسِم يتمُّ تحضيرُها بعد أن يجمعَ المعلومات والمُعطيات الكافية (أسماء وأرقام) حول الشَّخص والهدف المَطلوب، وبعد أن يستحوذَ أشياءَ (آثارًا من الشَّخص المَعنيّ) يكون قد طلبَها مُسبَقًا.

ومن بين الأمور المَطلوب منه إتقانها أو الإلمام بها، نذكر:

- تلاوة العزائم والتَّعاويذ.
- تحضير الطَّلاسِم.
- التَّنزيل، أي تنزيل الآفات من رأس مريضٍ باستدعاء قوَّة الله.
- الرّقية، وهي عوذه مصحوبة بنفث يُرقى فيها صاحب الآفة كأنْ يقرأ الرَّاقي فيها على موضع الألم أو في الماء وينفث أثر القراءة لفكِّ السِّحر والطَّلاسِم.
- فكّ الطَّلاسِم وحلّ مشاكل السِّحر والمَسّ.

والمعروف أنَّ بعض هذه الأمور كالتَّعويذة والرّقية وتلاوة العزائم هي من اختصاص رجال الدين؛ وهي مَحظورةٌ على غير هؤلاء من السَّحَرَة والدَّجَّالين.

٨- بعض أنواع الشَّعوذة

١- "اللَّعنة" و"صَيبَة العين":

اللَّعنة وصَيبَة العين، وقد يُقال لهما أيضًا "السِّحر عن بُعد" هما أكثر أنواع الشَّعوذة شيوعًا، ولا يتمَّان، ضرورةً، بقوَّة التَّركيز الفكريِّ على الضَّحيَّة، ولا على نوع الأذى المَنْويِّ رَميُه به، بل تكفيهما فكرةٌ عابرةٌ في رأس إنسانٍ يُضمرُ من خلالها شرًّا لأحدهم (عدوّ أو منافِس)، فيتحوَّل ذلك الإنسان، ولبعض الوقت، ساحرًا شرِّيرًا؛ وبخاصَّةٍ عندما يحنقُ من أحدهم لعملٍ قام به، وضايقه به، أو من مُنافِسٍ على ودِّ حبيب، أو على منصب، فيتفوَّه بلعنةٍ أو يرميه بنظرةٍ شذرة.

٢- السِّحر بالطَّريقة المباشرة:

يتمُّ السِّحر بالطَّريقة المباشرة بتقديم طَلَسَمٍ معدّ للأكل أو للشّرب للضَّحيَّة، أو برشِّه به إنْ كان سائلاً، أو بنَثره به إنْ كان مَسحوقًا، وذلك بهدف تعذيبه أو تبنيجه أو أيِّ أمرٍ آخَر حُضِّرَ الطَّلَسَمُ على أساسه. وقد يستعمل المُشعوذ مزيجًا من بعض النَّباتات، وأحيانًا من أعضاء بعض الحيوانات.

٣- السِّحر بالكتابة:

السِّحر بالكتابة يقومُ على كتابة الرَّاقي طَلَسَمًا على ورقة، أو جلد حيوان محضَّر، أو غيرهما، يذكر فيه اسمَ الضَّحيَّة والهدفَ المُبتَغى منه. ثمَّ يُصار إلى تخبئته في بيت الضَّحيَّة أو أيِّ مكانٍ آخر يكثر فيه مرورها. والكتابة لا تؤثِّر مباشرة، وإنَّما تأخذُ بعض الوقت لتُعطي ثمارَها.

٤- السِّحر عن طريق طلاسِم غير مكتوبة:

يقومُ السَّاحر بتحضير الطَّلاسِم المتنوِّعة من حصى أو عظام بعض الحيوانات أو أيِّ شيءٍ آخَرَ يراه الرَّاقي مناسبًا، ثمَّ على تخبئته بالقرب من منزل الضَّحيَّة.

٥- السِّحر عن طريق الصُّوَر:

السِّحر عن طريق الصُّوَر هو الآخَر كثير الشُّيوع. فكلُّنا ركَّز نظرَه أحيانًا على صورة شخص وطلب أو شاء أو تمنَّى شيئًا لصاحبها في نفسه. وقد يذهب البعض إلى حرقها أو دفنها في الأرض أو لصقها على الجدار. وقد تُستبدل الصُّوَر بأشياء تخصُّ الشَّخص المَعنيَّ من ثيابٍ أو خصلِ شَعر أو أحذية أو كتب خاصَّة به.

٦- السِّحر عن طريق المجسّدات:

السِّحر عن طريق المجسّدات يتطلَّبُ طقوسًا تتراوح في تعقيدها بحَسَب الكهَّان والهدف المُبتَغى. فكلُّنا سمع أو رأى على شاشات السِّينما أو التِّلفاز بعض المُشعوذين يصنعون دمًى شبيهةً بالإنسان، ثمَّ يرقون عليها لتتلبَّس جسدَ الضَّحيَّة. وقد يعمل البعض على إيجاد علاقة أقــوى بين الدّميَة والشَّخص المَعنِيّ كالعمل مثلاً على أن تحتوي تلك الدّميَة قطعةً عضويَّةً من الضَّحيَّة (خصلة شَعر أو دم أو ريق أو قطعة من أظافره...). وبعد تحضيرها بطقوس وشعائر خاصَّة تتداخلها الألوان والعطور والأسماء والكلمات السِّحريَّة، تُصبح طَلسَمًا وتُدفن في الأرض بالقرب من بيت الضَّحيَّة أو على طريقها كي تطلقَ الطَّاقة الَّتي اختزنتها وتأتي بمفعولها. وقد يُمثَّل بها كما يُراد بصاحبها كغرز الدَّبابيس فيها لإيلامه أو قطع يده أو رأسه.

٧- السِّحر بالسَّفَر الكونيّ:

يسبح جسد الإنسان في مادَّة كونيَّة أثيريَّة تربط الكلَّ بالكلّ: تربط النَّاسَ بالكواكب، والأقمارَ بالشُّموس، وبخاصَّةٍ أفكارَ النَّاس بالنَّاس، بحيث أنَّ الفكرة اللاَّماديَّة تصبحُ حركةً يتجسَّدُ فيها محتوى الفكرة ليصبحَ مَن تمرَّس على هذا النَّوع من السِّحر قادرًا على أن ينتقلَ بجسده الكونيِّ عبر الأثير نحو الضَّحيَّة النَّائمة، فيلبس جسده، ويملي عليه مراده، ويؤكِّد تسلُّطه المستمرَّ عليه.

٨- سحر التَّجمُّعات:

يقومُ الكهَّان، في هذا النَّوع من السِّحر، بإنشاء عبادة خاصَّة، وبتجنيد أتباعٍ لها؛ فيتسلَّط على هؤلاء بقوَّة شخصيَّته، ويحوِّلهم عبيدًا له يلزمهم بما يشاء من أعمال وتصرُّفات. وهذا النَّوع من التَّجمُّعات مُتفَشٍّ في الكثير من البلدان، وبخاصَّةٍ في الهند والشَّرق الأقصى، وفي الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وأوربَّا. وقد عُرف سرُّ أحدهم فأوعز إلى أتباعه بالانتحار؛ ففاقتِ الضَّحايا المئات. بينما انتظر آخَرُ بلوغ أحد المذنَّبات النّقطة الأقرب إلى الأرض من مسيرته ليوعزَ بالانتحار الجَماعيّ، بحيث تركب الأرواح هذا المذنَّب إلى حيث الحياةُ الأبديَّة!

٩- سحر الأمكِنَة:

يهدف بعض هذا السِّحر حمايةَ الأرزاق من السَّرقة والأذى، ويستدعي البعض الآخر هطولَ الأمطار عندما يطولُ المحلُ والشّحّ.

١٠- القدَّاس الأسود:

القدَّاس الأسود هو قدَّاسٌ كاثوليكيٌّ يُدخلُ الكهَّان في بعض أقسامه مَقاطعَ أو إشاراتٍ خاصَّةً وطقوسًا غريبة. وهذا القدَّاس الأسود يختلفُ عن القدَّاس الأسود الشَّيطانيّ، إذ أنَّه لا يتضمَّن عبادةَ الشَّيطان (أنظُر في ما بعد).

١١- سحر الاستِدعاء والابتِهال:

يقومُ هذا السِّحر على استِدعاء قوى الخير لمدِّ يد العون في المِحَن أو لحماية النُّفوس عند الخوف على المصير؛ منه ما يُقتصر على فردٍ واحدٍ كأنْ يطلب أحدُهم من الملائكة أو القدِّيسين أو الأنبياء مناصرتَه في محنة عائليَّة أو توجيهه لحلِّ مشكلة طارئة؛ ومنه ما يشمل عددًا من الأشخاص يقومون بطقوسٍ وشعائرَ خاصَّةٍ يقدِّمون

خلالها القرابين؛ ومنه، أخيرًا، ما يقوم به كُهَّان لخدمة أحد ضيوفهم. وعلى هذا نورد قصَّةَ فادي، أحدِ ضيوف الكُهَّان:

كان فادي قلقًا ومضطربًا، ولا يستطيع النَّوم الهادئ؛ فلديه مشكلة كدَّرت حياتَه وما وجدَ لها حلاًّ. إصطحبه صديقٌ له إلى بيت أحد العرَّافين. إختلى به هذا، وسأله عن أموره، فاشتكى له فادي مصابَه. أطفأ الشَّيخ النُّور وما أبقى إلاَّ على ضوءِ شمعة، باهتٍ؛ ثمَّ أخذ يتمتمُ بكلامٍ غير مَفهوم. وبعد فترة، أضاء الغرفة، وأطلع فادي على ما أفادته به الأرواح. بعدها طلب منه مبلغًا من المال وتركه ينصرف.

١٢- سحر التَّحوُّل ذئابًا *(Lycanthropie)*:

يلقي المُشعوذ سحرَه على نفسه أو على شخصٍ آخرَ ليتحـــوَّلَ عند حلول البدر ذئبًا أو أيَّ حيوانٍ آخر؛ بعدها، يروح الذِّئب ليَجوبَ القطاع وراء غايةٍ يكون المُشعوذ قد حدَّدها مُسبَقًا.

١٣- سحر التَّحوُّل خَفافيشَ *(Vampirisme)*:

سحر التَّحوُّل خَفافيشَ سحرٌ يُقدِمُ فيه المُشعوذ، من خلال طقوس خاصَّة، على إعطاء الأمر لموتى مدفونين بالقيامة والسَّير بين الأحياء ليزرعوا الموت والرُّعب مُحَوِّلين ضحاياهم خَفافيشَ.

٩- بعض أهداف الشَّعوذة

- طلب المرض أو الجنون أو المَسّ أو الموت للضَّحيَّة.
- طلب المودَّة من أحدهم.
- طلب الفشل واليأس لمنافسٍ ما.
- طلب وقف البغض والعداء بين الأخصام.

- طلب النَّجاح للنَّفس أو لأحد الأحبَّاء.
- التَّأكيد على أمانة الزَّوجة.
- إستمالة امرأة يشتهيها المُشعوذ أو أحد ضيوفه.
- الرَّبط، وهو وسيلة للتَّفريق بين زوجَين بتعطيل الزَّواج.
- إنهاء جفاف طال، والعمل على هطول الأمطار.
- طلب التَّحوُّل إنساناً لامَرئيًّا.
- إستبعاد منافِس، أو إلغاء عدوّ.
- طلب المناعة، طلب الشّفاء.
- الخوذقَة *(Chevellage)*، وذلك بزرع عودٍ خشبيٍّ في الأرض وتَخيُّل إدخاله في باب بَدَن الضَّحيَّة.

١٠- الحماية والعلاج

للحماية من تأثير السِّحر، أو للعلاج منه، تُستخدَم أساليبُ متعدِّدة:

- الطَّلاسِم الهادفة للحماية أو العلاج: خرزة زرقاء للحماية من عين الحسود.
- الرّقية، وهي عوذه مصحوبة بنفث يُرقى فيها صاحب الآفة بقراءة الرَّاقي على مركز الألم أو في الماء وينفث أثر القراءة لفكِّ السِّحر أو الطَّلاسِم.
- الحجب.
- التَّعزيم وهو قراءات خاصة وأناشيد.
- التَّنزيل وهو الابتهال إلى الله لينزل الآفات من رأس المريض.
- التَّعاويذ وهي كلمات أو نصوص مستخرجَة بخاصَّةٍ من كتب الدين، تُقرأُ وهي مَصحوبة بذِكر الله.

– طقوس خاصَّة بحضور الشَّخص المَعنيّ، وتتخلَّل الحفلَ شعائرُ وابتهالاتٌ لامتِصاص القوَّة الرَّاقية الَّتي تملَّكَته.
– الرّقية المعاكسة الَّتي تعكس السِّحر وتعيده لمَن قام به بالذَّات.
– الوقاية من السِّحر قبل أن يطول الإنسان، وذلك عن طريق كلمات أو أشياء تحمي من الرُّوح الشِّرِّيرة.
– ضرب المندل، وهو نوع من الرّقي تُخَطُّ خلاله دائرةٌ على الأرض، ويجلس الحاضرون داخلها قبل أن يدعوا الرُّوح للاستفهام منها عن أمرٍ ما. ويُقال إنَّ الدَّائرة تحمي البشر من الرُّوح إنْ كانت شرِّيرة.
– أخذ بعض الحيطة؛ والرَّاقي ينصح النَّاس بـــ:
* ألاَّ يرميَ الشَّعر أو قصائص الأظافر في أماكن يُمكن التقاطها.
* ألاَّ يُعيرَ أيَّ مقدارٍ من الملح.
* أن يُبقيَ على قرن حيوان في حوزته.
* أن يدفنَ فلسًا معدنيًّا تحت باب المَسكن أو بجواره؛ فالمُشعوذ أو السِّحر لا يمكنهما بعد ذلك العبور إلى الدَّاخل.
* ... إلى أشياء أخرى تتعلَّق بالعروس.

١١- الحقيقة

١- في وجود الشَّعوذة: وُجدت الشَّعوذة عند كلِّ الشُّعوب، وفي كلِّ الأزمنة. وحقيقة هذا الوجود ظاهرة وجليَّة بكتابات ورموز خلَّفتها الشُّعوب القديمة، وطلاسِم تمَّ اكتشافُها في أكثرَ من محلَّة. وهي، أي الشَّعوذة، لا تزال قائمة في أيَّامنا وعلى نحوٍ واسع.

فالمُشعوذون كُثُر: كلُّ غيور حَسود مُشعوذ، وكلُّ ضامرِ شَرٍّ لعدوٍّ مُشعوذ، وكلُّ مَن طلب الرَّحمة والرَّجاء من الأعالي يؤمنُ بالشَّعوذة؛ ولا أحدَ بَراءٌ من هذه الأفكار سوى الأطفالِ والمَعتوهين.

٢- **في قدرة المُشعوذ على تغيير القَدَر:** القَدَر، كما هو معروف، وكما حُدِّد سابقًا، لا يُمكن تغييره؛ لكنَّ البعض يظنُّ عكسَ ذلك من دون أن يعلم أنَّ كلَّ ما يقوم به هو من القَدَر بالذَّات. وعليه، هدف السِّحر باطل، والسِّحر ككلٍّ باطل؛ فمَن كان قَدَره أن يلتقيَ راقيًا، فسيلتقيه؛ ومَن كان قَدَره أن ينجوَ من محنةٍ، فسينجو.
ولعلَّ هدف الشَّعوذة ليس تغيير القَدَر، بل التَّأكيد على أنَّ الذَّات جُزءٌ من هذا القَدَر، فيُدخلُ المُشعوذ نفسَه لتصويب حدثٍ حتميّ، ويظنُّ أنَّ تغيير أيِّ ظرف من الظُّروف القائمة قد يغيِّرُ الأمورَ في اتِّجاه جديد قد يكونُ المُبتَغى. وهنا، يُصبح المُشعوذ قادرًا، فعلاً، على تغيير سَير الأحداث؛ وكذلك كلُّ فرد منَّا؛ فنصبح كلُّنا مُشعوذين، كلٌّ على طريقته الخاصَّة: فالطَّبيب الَّذي يعالج أحدهم ويُنَجِّيه من موتٍ محتَّمٍ مُشعوذ؛ والعالم النَّفسيُّ الَّذي يعالج مريضًا نفسيًّا ويُريحُه من هواجسه مُشعوذ...

٣- **في مسبِّبات الشَّعوذة:** الشَّعوذة قائمة أبدًا، فأسبابها هي هي اليومَ كما كانت قبل آلاف السِّنين. فكلُّنا مرضنا وتألَّمنا لمصاب، وكلُّنا اختبرنا اليأس وسوء الطَّالع يلاحقاننا، وكلُّنا تمزَّقت قلوبنا عندما شارف أحد أعزَّائنا على الموت. والشَّعوذة قامت قديمًا لتحدَّ من تلك الآلام والمآسي، واليوم، وعلى الرَّغم من الرَّجاء الَّذي علَّمتنا إيَّاه الأديان السَّماويَّة، فقد نفقد أحيانًا الأمل ونسلك سبيل المؤمنين بالشَّعوذة.
فالشَّعوذة نَمَت على بؤس البشر وعذابهم.

٤- في فاعليَّة الطَّلاسِم والمجسّدات: لا معنى للقول بإن تُملأ أشياءُ بإرادة شخصيَّة أو بطاقة نفسيَّة أو بضيف روحي؛ فالإرادة والطَّاقة النفسيَّة ليستا موادَّ لتُملأ بها كؤوسٌ أو قوارير. فلا تفاعلَ بين ما هو مادِّيٌّ وبين ما هو لامادِّيّ، فهذا خيالٌ بخيال؛ وبالتَّالي، لا معنى للطَّلاسِم ولا فاعليَّةَ لها؛ إنَّما الحقيقة هي في فكر المُشعوذ أو الضَّيف الَّذي جاءه لطلب خدمة. فقد تمرُّ بخاطر أحدهما أمنيةٌ تقضي بإصابة ضحيَّة بمكروه، وهذا ما يولِّد تموُّجات الحاسَّة السَّادسة، وقد تصيبُ تلك الضَّحيَّة إنْ كانتِ الشُّروطُ ملائمة.

٥- في اللَّعنة وصَيبَة العين: اللَّعنة وصَيبَة العين قد تتحقَّقان إذا كانتِ الشُّروط متوافرة. فاللَّعنة وصَيبَة العين هما كناية عن إصدار تموُّجات تتعلَّق بالحاسَّة السَّادسة، وشروط هذه أن تكون الضَّحيَّةُ في حال استرخاء فكريّ (نوم أو راحة)، وأن تكون الظُّروف المتعلِّقة باللَّعنة أو بصَيبَة العين قابلةَ التَّحقيق.
فإن تمنَّيت المرض لأحدهم فهي لعنة قد تتحقَّق، لكنَّها تبقى بعيدة المنال إذا كان ذلك الأحد معافًى، سليمًا، بعيدًا عن أيِّ وباء. وإذا تمنَّيت الموت لأحدهم، وكانت شروط موته قائمة (كونه مجرمًا سفَّاحًا، أو سُلطويًّا قاسيًا)، فاللَّعنة قابلةُ التَّحقُّق، وإنَّما ليس بالتقاطه هو تموُّجات الحاسَّة السَّادسة وخضوعه لغايتها، بل لأنَّ هذه التَّموُّجات قد تمرُّ برأس غريمٍ له يتمنَّى الفتكَ به، وهذه التَّموُّجات قد تحثُّ الغريمَ وتشجِّعه على الفعل. ولكن، لا نذهَبنَّ بعيدًا، ونظنَّنَّ أنَّ كلَّ ما نتمنَّاه ويكون قابلاً للتَّحقُّق، يتحقَّق. فالشُّروط الملائمة لا تكون دائمًا متوفِّرة في زمن الأمنية؛ وإنَّما احتمالُ بلوغ المُرتجى يكون أعلى عند المواظبة ليلاً ونهاراً على التَّفكير به، إذ لا بدَّ أن يحين الوقتُ المؤاتي.

٦- في القدَّاس الأسود: إنَّ التَّمنِّيات الَّتي تُذكر في القداديس السَّود قد تتحقَّق وبقوَّة

أكبر إذا توافرت شروطُها: فالتَّأثير يتكثَّف عند وجود عدد كبير من النَّاس يفكرون بالأمنية عَينها (أنظُر الفِقرة ١١). وأمَّا في ما خصَّ الطُّقوس والشَّعائر الَّتي تُقام خلال هذه القداديس، فلا معنى لها سوى كونها هرطقات.

٧- **في الاستِدعاء:** تمنِّيات الاستِدعاء قد تتحقَّقُ عن طريق الحاسَّة السَّادسة، وعلى نحوٍ غير مباشر؛ إذ إنَّ الاستِدعاء لا يتوجَّهُ إلى إنسان معيَّن، بل إلى الأرواح؛ وقد تمرُّ التَّموُّجات المتعلِّقة به في فكر أحدهم ممَّن يستطيع أن يساهم في تحقيقه.

٨- **في التَّحوُّل ذئبًا:** لا يمكن أن يتحوَّل الإنسانُ ذئبًا أو أيَّ حيوانٍ آخر؛ فهذا مخالفٌ الطَّبيعةَ. والقول إنَّ السَّاحر قد يفعل ذلك هو قولٌ غير صادق. إنَّما قد يتحوَّل الإنسان ذئبًا في خياله، إذ قد تتقاطع في فكره سلسلةٌ تدور حول شخصه مع سلسلة أخرى تتمحورُ حول ذئب، فيرى نفسَه عند ذلك يلبسُ جسدَ الحيوان ويتصرَّفُ بمُقتضى هذا التَّحوُّل. وإن حدث أن تخيَّل أحدُهم أنَّه تحوَّل ذئبًا، فهذا يدلُّ إلى هَلوَسَة في نفسه، وإلى وضعٍ شخصيٍّ غير سليم.

٩- **في قيامة الأموات:** مَن مات فقد مات، ولن يقوم، بل يصبحُ في العَدَم؛ وجُزيئاتُ جسمه تتفرَّقُ لتدخلَ في أجسام كائناتٍ حيَّةٍ أخرى. وإنَّما، مَن يتخيَّل هذه القيامة، فقد يرى معها في فكره أمورًا ونزواتٍ غريبةً تُشعرُه وكأنَّها حقيقة. فأن يتذكَّر أحدهم قريبًا له مات منذ زمن ويراه في خياله حيًّا يقوم بأعمالٍ اعتاد القيام بها في حياته أو أسبغَها عليه خياله، لأمرٌ شائع عند النَّاس؛ ولكن، قد يحسبُ بعض مَن يستفيق من الحلم أو الخيال أنَّ ما تراءى له هو حقيقة، وذلك لشدَّة تأثره وتفاعله مع ذلك الحلم أو الخيال، فيروح يقصُّ ذلك على كلِّ مَن يلتقيه مؤكِّدًا على صحَّة ما يرويه. وغنيٌّ عن القول إنَّ مَن يسبغ الحقيقة على هذا التَّخيُّل إنَّما هو في حالة مرضٍ نفسيّ.

١٠- **في السَّفَر الكونيّ:** صحيحٌ أنَّ مؤلِّفات الكون لها تأثيرٌ بعضُها على البعض الآخَر، وإنَّما هذه المؤلِّفات مادِّيَّة، ولا تتعامل مع الرُّوحانيَّة؛ فلا المادَّةُ تتحوَّل روحًا، ولا الرُّوحُ مادَّةً. وإن صحَّت بعض تمنِّيات "المُسافر الكونيّ" في هذا المجال، فلأنَّ خياله كان خصبًا وناشطًا لابتكار أمور يمكنُ الواقعَ أن يتطرَّقَ إليها.

١١- في سحر التَّجمُّعات:

أوَّلاً – *دور الحاسَّة السَّادسة في التَّجمُّعات*

سبقَ وأشرنا في القدَّاس الأسود إلى أنَّ التَّأثير المتعلِّق بالحاسَّة السَّادسة يتكثَّف عندما يقومُ عددٌ كبيرٌ من النَّاس بالتَّركيز على أمنية واحدة، وتصبح تموُّجاتُها أكثر فاعليَّة: فالحشود المتلاقية في عظة رجل دين أو في تجمُّعٍ خطابيٍّ لأحد السِّياسيِّين المغمورين لها مفعولٌ كبير، بخاصَّةٍ عندما يحثُّها المتكلِّم على الهتاف بعبارة واحدة تختزلُ أمنيةً أو وعيدًا.

وإن لم يأتِ دعاء أحدهم وابتهاله بنتيجة، فجمعُ أصدقائه وأصحابه في جلسة خاصَّة يرفعون فيها معًا الدُّعاء نفسه، قد يأتي بما لم يأتِه الدُّعاء المنفرِد.

ثانيًا – *الفكر اللاَّواعي عند التَّجمُّعات (Esotéricisme)*

مثلما للخلية قلبٌ وروحٌ وذاكرة، كذلك للإنسان، مجموعةِ الخلايا، قلبٌ وروحٌ وذاكرة. وكما عند الإنسان الفَرد، كذلك في التَّجمُّعات البشريَّة روحٌ ووَعيٌ وذاكرة. وعلى هذا قامت، ولا تزال تقوم، تجمُّعات في تَوقٍ لاواعٍ لأهداف نوعًا ما ضبابيَّة، يسيرُ نحوها أفرادُها من دون ضابط. ثمَّ يخرج من بينهم عرَّافٌ لديه رؤية واضحة للأحداث الكبيرة، فيقودهم نحو الغاية المنشودة، فيُنسَب التَّجمُّع إليه (الإسماعيليَّة – الماسونيَّة...).

١٢- الشَّعوذة في اختِصار: الشَّعوذة جنوحٌ فكريٌّ أو ضبطُ فراغ؛ أسبابها الضَّعف أو الخوف أو القدرة أو الوحدة أو الضّياع؛ وقائعها أوهامٌ تختلف باختلاف نشأة المُشعوذ وشخصيَّته؛ يَبتكر الحداثةَ فيها ليعوِّضَ ما فاتَه أو ما حسبَ أنَّه فاتَه في صباه. ولكن، تبقى في الشَّعوذة بعضُ الحقائق:

- فهناك قضيَّة الحاسَّة السَّادسة.
- وهناك إرادة المُشعوذ في بلوغ مُبتغاه.
- وهناك قوَّة حاسَّة البصر.
- وهناك المصالح الجانبيَّة، من ماليَّة وغرائزيَّة.

١٣- في ما يُنصَح من أمور:

- إتَّبع قَدْرَ المُستَطاع القولَ المأثور: "عينٌ لا ترى، أذنٌ لا تسمع، قلبٌ لا يوجع، فكرٌ لا يقلق".
- لا تتعرَّض لمَن يزعجك أو يُعاديك، أو لمَن تُحبّ.
- إنتمِ إلى مجموعة تتوافقُ وتطلُّعاتِك.
- أشغِل نفسك بما يعنيك وما تمهر فيه.

الفصلُ العاشر
السِّحر الشَّيطانيّ

١- السِّحر الشَّيطانيّ *(Satanisme)*

السِّحر الشَّيطانيّ، ويُقال له أيضًا السِّحر الأسود، هو السِّحر الَّذي يتمُّ فيه التَّعامل مع الشَّيطان للوصول إلى ما يُرتجى منه، كأنْ يقومَ السَّاحر بتعظيم الشَّيطان وتقديم القرابين له، ليقابلَه هذا بتحقيق رغباته وآماله. وأمَّا طقوس التَّعامل هذا فتعودُ إلى نوع السِّحر المُعتَمَد وأهدافِه، إذ إنَّ السِّحرَ الشَّيطانيَّ على أنواع.

عبدة الشَّيطان يزعمون أنَّه هو مَن يحكم العالم، وإنَّه كان ضحيَّة الله الَّذي طردَه من الأعالي من دون شفقة؛ وأنَّه سينتصرُ في النِّهاية، وسيكافئ عندئذٍ مُحبِّيه ومُناصريه. وأمَّا الجحيم فهي عندهم الفردوس الحقيقيّ؛ وهم يؤكِّدون أنَّ الشَّياطين تخدمُ البشر، وتستجيبُ لهم، أكثر ممَّا تفعلُ الملائكة. ففي المِحَن يذكرُ الإنسانُ أوَّلاً الله والملائكة، وعندما تستفحل محنته، ولا مَن يستجيب، يتَّجه نحو الشَّيطان يستحلفُه العون. وإذ يستسهلُ التَّعاملَ معه، هو الَّذي لا يتطلَّب الكثير، يواليه ويعقد معه حلفًا، فإمَّا أن يكون سيِّده، وإمَّا أن يكون عبدًا له.

٢- أنواع السِّحر الشَّيطانيّ

١- إستدعاء أو استحضار الشَّياطين *(Goetie)*

يتمُّ استحضار الشَّياطين والجانّ خلال طقوس خاصَّة مَصحوبة بتقديم قرابين ترتاح إليها تلك الأرواح، وقد تصل إلى ذبح إنسان لتتمكَّن الشَّياطين من نَهل دمائه. ثمَّ يقوم السَّاحر بإعطاء الشَّياطين الأمرَ الَّذي يشاء تنفيذَه. ويُقال إنَّ هذا النَّوع من السِّحر يقوم به سَحَرَةٌ من المستوى الأدنى.

٢- إستدعاء أرواح الموتى *(Nécromancie)*

يقوم هذا السِّحر على نبش القبــور، وعلى إعطاء الأمر للأرواح لاستعادة أجسادها

المهترِئَة، ومن ثَمَّ جعلها تتكلَّم للإفصاح عن مكامِن الكنوز وعن توقُّعات المستقبل.

٣- إبداع كائنٍ حيّ *(Homoncule)*

يقوم السَّاحر بجَمع أعضاء مختلفة من جثث إنسانيَّة أو حيوانيَّة ليُبدعَ منها كائنًا متكاملاً؛ ثمَّ يُعطيه الحياة بتزويده بالطَّاقة اللاَّزمة. بعدها، يصبح هذا الكائن خادمًا لسيِّده ينفِّذ ما يطلبه منه.

٤- إيقاظ الأموات *(Zombisme)*

يعمل السَّاحر على استدعاء الجنِّ والعفاريت من خلال طقوسٍ خاصَّةٍ وغريبة، وذلك لمساعدته على إيقاظ الموتى، فتفتح هذه قبورَها وتشقُّ الأرض وتخرجُ إلى المَلأ. ويُقال إنَّ صورًا فوتوغرافيَّةً أُخذت لبعض هؤلاء الموتى الأحياء وأنَّ مَن شاهدهم رآهم يتحرَّكون كالآلة المُسَيَّرة، من دون إرادة، وهم ينظرون إلى اللاَّشَيء.

٥- الإتِّصال بأرواح الأجداد *(Vaudou)*

إشتقَّ هذا النَّوع من السِّحر من دينٍ إفريقيٍّ اعتنقته قبائلُ عدَّةٌ من السُّود، وتمَّ مزجُه بروح الكاثوليكيَّة بعد انتشارها بين تلك الأقوام.

٦- الشَّعوذة الحمراء *(Satanisme)*

الشَّعوذة الحمراء هي مظاهرة جَماعيَّة لعَبَدَة الشَّيطان، يُباح فيها الجنس على أشكاله. ويُزعم أنَّ الشَّيطان نفسَه يترأَّسُها، وتنتهي بمُجامعته النِّساءَ الحاضرات. ومن مجالسها المختلفة، نذكر:

- **القدَّاس الأسود:** يتبع الكاهنُ الشَّيطانيُّ في القدَّاس الأسود شعائرَ المذهب المسيحيِّ الكاثوليكيّ؛ ولكنَّه يبدل كلمة الله بالشَّيطان، ويتلو الصَّلوات على نحوٍ مَعكوس. وعادةً ما يُقام المذبح على جسد امرأة عارية.

– **الزَّار:** الزار عبارةٌ عن حفلات تُقرَع فيها الطُّبول وتتمايل على نغماتها الأجساد، ويطلق البَخور لإرضاء الشَّيطان. ويترأَّس الزَّار جنِّيٌّ يتلبَّس جسمَ إنسان. ويُقال إنَّ إنسانًا من لحم ودم هو مَن يأخذ دور الشَّيطان، ويكون عادةً رئيسَ القوم.

– **السّبط** *(Sabbat)*: هو اجتماعٌ خاصٌّ بالسَّحَرَة النِّساء تُهيَّءُ فيه فتاة شابَّة لتُقدَّم للشَّيطان الذي يوسمها على كتفها بوسمة شيطانيَّة مميَّزة. ويُقال إنَّ مآدب تتخلَّل الاجتماع يؤكلُ فيها أطفالٌ صغار، محمَّصةٌ على النَّار، أو مقليَّة. وينتهي المجلس بنكران الله وبعربدة جنسيَّة وتعاطي المخدِّرات وهذيان ورقص وفحش.

– **التَّجمُّعات الحديثة:** يجتمع بعض الشُّبَّان في أماكن غريبة، مقابر، بَرارٍ، حيث تضاء الشُّموع وتُدنَّس الشَّعائر الدِّينيَّة المسيحيَّة ويتمُّ تعاطي المخدِّرات وتُستباح الأعراض. ويُقال إنَّ الشَّيطان يطلب من وقتٍ إلى آخر أحدَ أتباعه ليزورَه في ملكوته، فيُسفَكُ دمُه أو يُدفع دفعًا إلى الانتحار.

٣-خرد الأرواح

ظنَّ النَّاس قديمًا أنَّ الشَّيطان موجودٌ بينهم، وأنَّه يسكن أجسادَ الأقزام والمتسوِّلين والعجزة والمجانين، وحتَّى أجسادَ بعض الحيوانات، فنبذوا هؤلاء. وكان الكهنة والعرَّافون مسؤولين عن طرد هذه الشَّياطين؛ وغالبًا ما كانوا يلجأون إلى التَّعاويذ لإلزامها على ترك تلك الأجساد، ومنهم من أفتى بجَلد المساكين أو إحراقهم في النَّار.

وأعطتِ الكتب المقدَّسة أمثلةً عن هذا الطَّرد؛ فقد جاء في الإنجيل ذكر طرد الشَّياطين من أجساد الخنازير.

وفي الإسلام، وعند العرب بخاصَّة، يتعاملُ الرَّاقي أحياناً مع جانٍّ في جسد مريض أو مختَلّ. ويُنصح بالتَّعرُّف على شخصيَّة هذا الجانّ الصَّارع ليُسهَلَ طردُه؛ ثمَّ يقوم الرَّاقي بتعذيبه أو حرقه بالدّعاة أو بقراءة آيات من القرآن الكريم أو رشِّه بماءٍ مَقروءٍ عليه. وقد يُمهلُ الجانّ للخروج قبل حرقه.

٤- حقيقة السِّحر الشَّيطانيّ

١- في الشَّيطان:

الملائكة والشَّياطين هم، كما يُقال، أرواحٌ فَرَضيَّة، خلقَها الله لتكونَ في خدمته. لكنَّ الشَّياطين عصوا أمرَه، فنُبذوا وطُردوا من الجنَّة وأصبحوا وراء كلِّ عملٍ شرِّيرٍ ولئيم. وأمَّا الملائكة فقد التزمت موالاةَ خالقها، واحترمته، وبقيت في خدمته؛ وهي وراء كلِّ عملٍ خَيِّرٍ وسليم.

ولقد اختلف رجال الدِّين على جنسها وعلى لبسها ونعلها وعلى لون بشرتها وهيئتها، وإذا كانت لها أجنحةٌ لِتَطير. حتَّى أنَّ بعضهم ألصقَ بها ديانات: فمنها المسيحي النّصرانيّ، ومنها المسلم، ومنها اليهوديّ.

والحقيقة أنَّ الملائكة والشَّياطين هي أرواح لا وجودَ مادِّيًّا لها؛ كما لا يمكننا التَّثبُّتُ من وجودها الرُّوحانيّ، لأنَّنا لا نتأثَّر بها. وعليه، لا نبحثَنَّ عن جنسها ولبسها ونعلها، فهي، قطعًا، ليست على شاكلة الإنسان؛ فلا وجودَ لها ولا صفات.

وإذ لا وجودَ مادِّيًّا للشَّيطان، فلا مكان ولا زمان للتَّعامل معه.

الشَّيطان وجودٌ خياليٌّ في عقول المُشعوذين، ولا معنًى، بالتَّالي، لاستِحضاره أو التَّعامل معه أو طرده سوى في تلك العقول. وأمَّا عبادته فتمثِّلُ ظاهرةَ انحراف أو حالة دجالة ومكر يقوم بها البعض لإشباع رغباته المادِّيَّة والشَّخصيَّة.

٢- في الجانّ:

أقرَّت بعض الدِّيانات، وبخاصَّةٍ الإسلام، بوجود نوعٍ آخرَ من الأرواح: الجانّ. واعترف العرب أيضًا بصنف جديد من الجنّ، وهو الشِّق.

ويُقال إنَّ الجنَّ على ثلاثة أنواع: منه مَن له أجنحة ليطير، ومنه مَن هو على هيئة الكلاب والحيَّات، وأخيرًا ثمَّة صنفٌ ثالثٌ يظعن (يهرب ويختفي).

ويُقال إنَّ من الجنَّ ما هو صالح، ومنه ما هو طالح كالمارد والمريد والعفريت. وأمَّا القرينة فنوعٌ من الجنِّ يؤذي البشرَ على نحوٍ خاصّ.

والجنُّ كالشَّيطان يدخلُ جسمَ الإنسان، ويلبسُه، وقد يخرج منه من خلال الأصابع، ولاسيَّما الإبهام؛ ومنهم مَن يخرج من عين المَلبوس. وإذا دخل جنٌّ جسدَ أحدهم أصابه بالمرض والصَّرَع أو الجنون.

وأمَّا حقيقة الجنِّ فكحقيقة الشَّيطان، إذ لا وجودَ مادِّيًّا له، ولا يمكنُ التَّعاملُ، بالتَّالي، معه. وقد أظهر العِلم أنْ لا عفاريتَ ولا جانَّ وراء المجانين والبسطاء.

فالجنُّ لا يلبسُ الإنسان، بل الإنسانُ قادرٌ على لبس الجنّ.

٣- عند عَبَدَة الشَّيطان:

عَبَدَةُ الشَّيطان وأتباعُه موجودون اليوم كالأمس، فجذورهم تعودُ إلى أزمنة بعيدة وعند مختلف الشُّعوب. ولا جدوى لتكرار القول إنَّ عبادة الشَّيطان بدعة عند بعض المنحرفين لتأكيد حضورهم على مسرح الحياة.

٤- في إستدعاء أرواح الأموات:

لقد تمَّ البحث في حقيقة استِدعاء أرواح الموتى سابقًا (أنظُر الفصل الثَّامن).

٥- في إبداع كائنات حيَّة:

إبداعُ كائنٍ حيٍّ هو بدعة عند بعض المُشعوذين وأهل الخيال؛ ولا جدوى من البحث

فيه لأنَّ السَّبيل المنهجيَّ المُتَّبَع غير واقعيّ. ولكن، قد تكون الفكرة واردة في عقول بعض علماء البيولوجيا. فلقدِ استطاع الإنسان بالتِّكنولوجيا المتقدِّمة استعمالَ الأنابيب لتذكير بويضة الأنثى خارج الرَّحم؛ كما استطاع استنساخَ بعض الحيوانات؛ وقد يصلُ يومٌ يُنشئ فيه جنيناً في الأنبوب حتَّى شهره التَّاسع من دون الحاجة إلى رحم. ولكن، ليس هذا بالإبداع المَطلوب؛ فالإبداع يكون بفَبرَكة خلايا حيَّة من عناصر الجماد. ولا يظهر اليوم أيُّ أفق لهذا النَّوع من الإبداع، وعلَّه لا يزال بعيدَ المَنال وقد يصل إليه الإنسان يومًا ما. إنَّما نذكِّر بأنَّ الحياة لم ترَ النُّور على الأرض إلاَّ بعد أن تقلَّب الجماد إلى عناصر معقَّدة، وفي ظروف متغيِّرة ودقيقة، وفي مدَّة زمنيَّة تعدَّت الملايين من السِّنين، مما يصعبُ على الإنسان اليومَ نبشها والاطِّلاع على تقلُّباتها. ولكن، مَن يعلم ما يخبِّئُه الغد.

ونشير، في هذا السِّياق، إلى أنَّنا وضعنا نهجًا يسهِّلُ، على مَن يَوَدُّ الخوضَ في هذا الموضوع، السَّبيلَ لبلوغ الهدف المنشود، وذلك في إحدى دراساتنا السَّابقة: "مسؤوليَّة الأثر والتَّذكُّر في نشوء الإنسان".

وإن لم يكن إبداعُ كائنٍ حيٍّ حقيقةً، فلعلَّه كان فعلَ خيال خصب غذَّى موادَّ الكثير من الأدباء السَّابقين، ولا يزال يغذِّي المعاصرين منهم.

٦- في إيقاظ الأموات:

يدخلُ الأموات في الفناء الأبديّ؛ وعليه، لا يمكنُ إيقاظهم ولا قيامتهم الجسديَّة. وكلُّ ما قيل ويُقال عن هذا الأمر إنَّما هو خيالٌ بخيال. والصُّوَر الفوتوغرافيَّة الَّتي أخذت أو قد تؤخذ إنَّما هي تركيبات مختبريَّة لإيهام النَّاس بحقيقة ما يُزعَم.

٧- في الاتِّصال بالأرواح:

تمَّ البحث سابقًا في هذا الموضوع (الفصل الثَّامن).

٨- في الشَّعوذة الحمراء:

الشَّعوذة الحمراء حقيقة حاضرة، تجنِّد سنويًّا المئات من الشَّباب الَّذين غُرِّرَ بهم. وهؤلاء يلجأون إلى هذا النَّوع من التَّجمُّعات إمَّا لإدمانهم على المخدِّرات، وإمَّا هربًا من واقع لم يستطيعوا الاستمرار بالعيش فيه.

٩- في اختصار:

يقوم السِّحرُ الشَّيطانيُّ على ركائزَ مختلفةٍ، نذكرُ منها:

١- حاجة الإنسان إلى الانتماء إلى التَّجمُّعات.

٢- مَيل الإنسان إلى استباحة المحرَّمات.

٣- قدرة المُشعوذِ الشَّيطانيِّ على الإقناع.

الفصلُ الحادي عشر
قراءة الغَيب والطَّالِع

١- قراءة الغَيب

قراءة الغَيب هي محاولةُ البعض خرقَ ظلمات الماضي لاستطلاع ما بقي خافيًا من أمور، واستشراف المستقبل لنَبش ما يخبِّئُه من أحداث وتقلُّبات. وهي ترتكز على بعض الظَّواهر الخارجة عن المألوف، والَّتي يُقال إنَّها بقيت مُستَعصية عن العِلم والوسائل التَّجريبيَّة.

والمناهجُ الغيبيَّة المتَّبَعة عالميًّا متنوِّعةٌ؛ منها ما يلجأ إلى رموز (كواكب، ملامح، مراكز...)، ومنها ما يلجأ إلى وسائط (فناجين قهوة، بلّورة، أوراق حظّ...)، ومنها، أخيرًا، ما يستجدي الحدس والوحي والإلهام.

معظم السَّحَرَة الَّذين يزعمون كشف الغَيب والتَّحكُّم بلعبة القَدَر يؤمنون إيمانًا راسخًا بالأُسُس "شبه العِلميَّة" الَّتي يستندون إليها في إصدار توقُّعاتهم. وأمَّا الباقون فيتظاهرون بالمعرفة ويقومون بكلِّ براعة بالصَّول والجول في ميادينهم لتَوَخِّي الشّهرة أو الرّبح المادِّيّ.

٢- قراءة الطَّالِع باستعمال الوسائل والأدوات المادِّيَّة *(Sortilège)*

إنَّ قراءة الطَّالِع باستعمال الوسائل المادِّيَّة هو فنٌّ يبرع فيه بعض الَّذين يقومون به إمَّا لسِعَة الخبرة في التَّكلُّم المُنَمَّق عن المواضيع المَعنيَّة، وإمَّا لِمَلَكَة استِنباط الجمل المؤثِّرة الَّتي يمهرون بها. وأمَّا كنهُ ما يقولون فلا علاقة له من قريب أو من بعيد بقَدَر الإنسان. حتَّى إن صاب أحدُهم، فيكون ذلك لمجرَّد الصّدفة لا أكثر ولا أقلّ. فإذا طُلب من الحاوي معرفة جنس الجنين في أحشاء أمِّه فجوابه سيكون بنت أو صبيّ، وقد يصيب وقد لا يصيب.

القراءة في فنجان القهوة: هي البحث في الرُّسوم الَّتي يتركها تفلُ البنِّ على جوانب الفنجان وفي قعره، عن أشكال حيوانات أو طرق أو أيادٍ أو أناس، ثمَّ ترجمة هذه الأشكال وقائعَ تشدُّ المَقروء له إلى سماع كلِّ ما يمكنُ الفنجانَ البوحُ به من مقدّرات: فالحيَّة إنسان لئيم يتربَّص، والطَّريق طريق سفر إلى الخارج، واليد لقبض المال.

القراءة في "ورق اللعب": هي قراءة ما تخبِّئُه كلُّ ورقة من تلك الأوراق (وقد وصل تعدادها اليوم إلى ستٍّ وخمسين ورقة) من حظوظ مستقبليَّة تتقلَّب بين السَّعادة المغمورة والموت المحتوم. فالورقة تمثِّل مرحلة من مراحل حياة الإنسان أو كوكب من كواكب السَّماء أو ملكة السعادة أو سلطان الموت. فإنِ اخترتَ أحداها تكون قد كشفت طالعك بها، وما عليك سوى النَّظر إلى القارئة، وهي تحدّق بالأوراق تارةً عابسةً متربِّصة، وطورًا مُستَرخيةً هادئة، ثم الاستماع إلى كلماتها الَّتي تقضي بالحكم الواقع لا محالة.

إستخدام الرَّقَّاص أو البندول: الرَّقَّاص عبارةٌ عن جسمٍ معدنيٍّ صغير مَربوط بسلك طويل نسبيًّا، يُمسكُه الحاوي من أعلى السِّلك ليتدلَّى الجسمُ المعدنيُّ حرًّا إلى الأسفل. وهذا الرَّقَّاص لا يتطلَّب سوى القليل من الطَّاقة ليبدأ بالاهتزاز. ويقولُ الحاوي إنَّ قوًى غريبةً تعمل على إعطائه هذه الطَّاقة، وتدفعه للاهتزاز روحةً وجيئةً بالاتِّجاه الَّذي يجبُ على الحاوي مثلاً اتِّباعه للوصول إلى كنز.
ويقول العاملون به إنَّ اهتزازه من الشَّرق إلى الغرب يعني "نعم" على أيِّ سؤال يُطرَح، فيما اهتزازه ومن الشَّمال إلى الجنوب يعني "لا" على ذلك السُّؤال.

إستخدام الأرقام والحروف *(Numérologie)*: يسأل الحاوي الضَّيفَ عن اسمه الثُّلاثيِّ وتاريخِ ولادتِه، ثمَّ عن اسم الأمِّ وتاريخ ولادتهـــا. بعدها يُقابل حروفَ هذه

الأسماء وأرقام التَّواريخ مع ما يمرُّ بباله من أمور كأرقام الكواكب وتواريخ تواصلها وتوافقها. ثمَّ يجمع ما حصل عليه ويطرحه، ثمَّ يضربه ويقسمه ليُطلع ضيفَه، أخيرًا، على ما بلغه من الغَيب عن طالعه وغده العاطفيِّ والماليِّ والصِّحِّيّ. والحاوي المتقدِّم يُصبح قادرًا، هكذا يُقال، ليس على كشف الغَيب فحَسب، بل على كشف اسم صاحب العلاقة وسنِّه والكثير من أموره من دون أن يكون قد وجَّه إليه أسئلةً في هذا الخصوص. والسِّرُّ في ذلك الأمر العجيب في الشَّريك الخفيِّ الَّذي يكون قد جمع تلك المعلومات ومرَّرها للحاوي قبل المقابلة.

الضَّرب بالرَّمل *(Géomancie)*: يُختصر الضَّرب بالرَّمل بقراءة آثار ما تتركه بعض الأشياء الَّتي تُلقى على التُّراب أو الرَّمل. فهذه الأشياء تترك خطوطًا ونقاطًا تعطي أشكالاً يترجمها الحاوي بطرقات أو حيوانات أو أناس أو أمور أخرى تكون مواضيع لقاءات وأسفار وغراميَّات موضوعة على أجندة حضرة الضَّيف الغَيبيَّة.

ضرب الودع (الأصداف) أو عِلم الصَّلصَلَة: يتألَّف الودع من الأصداف العظميَّة لبعض الحيوانات البحريَّة؛ له من ناحية تجويف ومن النَّاحية الأخرى نتوء (طبَّة). ترمي البصَّارة هذه الأصداف على الأرض مرَّةً وثانيةً وثالثةً، وقد تطلبُ من ضيفها فعلَ ذلك بنفسه. وفي كلِّ مرَّة ترسم هذه الأصداف في خاطر البصارة أشكالاً تترجمها بقصص وروايات عن مستقبل ذلك الضَّيف.

ضرب الحصى والعظيمات: وقد تستعيضُ البصَّارة عن الأصداف بـــ "حصى" أو عظيمات بعض الحيوانات (دجاج، وأرانب، وغيرها...).

إستخدام الكتب *(Bibliomancie)*: يعطي المبصِّر ضيفَه كتابًا، ويطلب منه أن يفتحَه ويقرأ أوَّل سطر يقع نظـــرُه عليه. وما يأتي في هذه القـــراءة يُعطي المبصِّر مادَّةً

كافية لقراءة طالِع الضَّيف. وعند المسلمين، يُستعاضُ بالقرآن الكريم عن الكتاب العادي، وتكون مادَّة أوَّل آية يقع البصرُ عليها محتوى طالِع الضَّيف.

إستخدام المرايا: يستخدم المبصِّر المرآة كشاشةٍ لرصد صُوَر أمكنة بعيدة مع الأحداث الَّتي تجري فيها، أو صُوَر ينبشها من الماضي أو من غياهب المستقبل. وإذا أتاه ضيف، طلب منه ربط نظره على تلك المرآة بينما هو يصحب هذا التَّركيز بكلام رتيب وهادئ ممَّا يعطي الضَّيف مفعولاً مخدِّرًا، فيعكس خياله صورًا يحسبُها ترتمي على صفحة تلك المرآة. وقد تُستبدل المرآة بصفحة ماءٍ راكدة.

قراءة التَّواريخ *(Chronomancie)*: يطلب قارئ الغَيب تاريخ الولادة لمعرفة مراكز الكواكب في ذلك الوقت ليقابل في ما بينها وبين ما تُعطيه لوائح معدَّة سلفًا ومنسَّقَة من قِبَل كبار علماء التَّنجيم. وهذه اللَّوائح تترجم مراكز النَّجوم بطبائع النَّاس وحظوظها الصِّحِّيَّة والعاطفيَّة والماليَّة.

إستخدام العيدان *(Rabdomancie)*: استُخدمت العيدان بخاصَّة للتَّنقيب عن المعادن الثَّمينة والكنوز المَطمورة والآبار المائيَّة الجوفيَّة. وقد توقَّف العمل بها في هذه الأيَّام واستُعيض عنها بالرَّقَّاص. والعيدان تُقطَع من الأشجار على شكل حرف "Y" اللاَّتيني، يتناولها الإنسان من طرفَيها، ويسير بها في الأمكنة الَّتي يُمكن أن يكون مطمورًا فيها كنزٌ ثمين؛ حتَّى إذا ما اهتزَّت ومالت إلى الأسفل، دلَّت على الموقع المَقصود.

إستخدام طيران بعض الطُّيور *(Augurie)*: يُحرِّر الرَّاقي طائرًا ويراقب طريقة انطلاقه واتِّجاه طيرانه؛ ويستخلص من ذلك الكثير ممَّا غاب عن ضيفه الجالس بالقرب منه ينتظرُ سماعَ طالعه.

إستخدام كرة الكريستال أو البلّورة *(Gastromancie)*: تُستَخدم البلّورة كالمرآة لتحرير اللاَّوَعي بربط نظر الضَّيف عليها.

إستخدام المياه *(Hydromancie)*: تُستَخدم صفحة الماء كمرآة، أو يُصار إلى إثارتها لقراءة التجعُّدات الَّتي ترتسم عليها كرموز لها معانٍ متَّفَق عليها.

إستخدام دخان النَّار، أو عِلم الدّخنَة *(Pyromancie)*: تتمَّ في هذا النَّوع من الوسائل قراءة تصاعد الدُّخان، والتفافه بعضه على البعض الآخَر، والأشكال الَّتي قد يرسمها بتلاوينه المختلفة. وهناك مَن يقرأ ارتجاف الشّعلة والتواءاتها.

إستخدام الحاسوب: وقد أُدخل الحاسوبُ حديثًا كأداة لقراءة الطَّالِع.

حقيقة هذه القراءات

لا جدوى من التَّعليق المُطَوَّل على هذه القراءات، بل نكتفي بالقول إنَّها لا ترتكز على أُسُس علميَّة، وإنَّها لا تمتُّ إلى طالِع الإنسان بأيِّ صلة. وهي لا معنى لها سوى كونها مسرحيَّات ترفيهيَّة يقوم القارئ فيها بدور البطل إمَّا لإظهار براعته في رؤية الرُّسوم وسَبك الجُمَل المؤثِّرة، وإمَّا لِهَدف مادِّيّ.

والإنسان شغوفٌ في طبعه لمعرفة ما ستؤول إليه الأحوال. وهو يهرع، غالبًا بمزاح مصطَنَع، ليسمع ما سيقوله له القارئ بينما يكون في قرارة نفسه متربِّصًا لسماع ما سيطرق أذنه من وقائع لا محالة حاصلة.

وأمَّا نحن، فنشير إلى أنْ لا ضررَ هناك من أن يطَّلع الإنسان على قَدَره من وراء هذه الوسائل، لا لتحفيزه على السِّحر، بل لإيماننا أنَّ الكلمات الَّتي سيسمعها قد تريح قلبَه وتحوِّل قلقَه أمانًا وشؤمه تفاؤلاً، شرطَ أن لا يدأب على البحث عن مصادر تلك الأمور فتتحوَّل عنده الحشريَّةُ شغفًا، فإدمانًا.

٣ - قراءة الطَّالِع من خلال بعض ميِّزات الإنسان الظَّاهرة

١- قراءة الكفّ *(Chiromancie)*

يستند قارئ الكفّ على الخطوط والانحناءات والنّتوءات المَطبوعة على اليد؛ إذ يظهر أنَّ كل إنسان يحتفظ بفَرادة تلك الخطوط والنّتوءات. وقد صدرت أبحاثٌ وتأليفات جمَّة، منها القديم ومنها الحديث، في هذا الخصوص، توضحُ على نحوٍ موثَّق ما يرمز إليه كلُّ خطٍّ وكلُّ نتؤ، بحيث نكاد نقول إنَّ قراءة الكفِّ لم تعد فنًّا أو سحرًا بل هو علمٌ بحدِّ ذاته.

لكنَّنا نعلم أن لا علاقة لهذه الخطوط بقَدَر الإنسان؛ وإنَّما يستطيع البعض، من النَّظر إلى الكفّ، معرفةَ الكثير عن حالة صاحبه الصِّحِّيَّة والمهنيَّة والاجتماعيَّة، وليس هذا بطالِع ولا بتنبُّؤ. فالكفُّ النَّظيفُ اللَّيِّن يدلُّ مثلاً إلى حياة هانئة رغيدة؛ وأمَّا الكفُّ الَّذي تغشاه قساوة، فيدلُّ إلى حياة شاقَّة؛ والأظافر المتَّسخة تدلُّ إلى الاستِهتار، وأمَّا النَّظيفة والمقلَّمة فإلى الأناقة وحبِّ الظُّهور؛ والكفُّ الأحمر يدلُّ إلى صحَّة سليمة، فيما الأصفر الباهت يدلُّ إلى مرضٍ أو عيٍّ. وطبعًا، هذا صحيح إلى حدٍّ بعيد.

٢- علم الفراسة أو قراءة تقاطيع الوجه *(Physiognomonie)*

تقوم هذه القراءة على شكل الوجه وانحناء الأنف وعرض الجبهة ونفور الخدَّين وشعر الحاجبَين، إلى ما هناك من تقاطيع في الوجه. كما تأخذ هذه القراءة في عين الاعتبار التَّشابه بين الوجه المَقروء ووجوه بعض الحيوانات. وهذا العِلم، إذا جاز التَّعبير، لا يتطلَّع إلى المستقبل، بل يحدِّد طبائع النَّاس. ويستمدُّ جذورَه من الماضي البعيد. فقد وصلتنا كتب تبحث في هذا الموضوع من عهد اليونان (إبيوكراتوس)، والرُّومان.

ولقد أظهرت بعض الدِّراسات أنَّ هناك بالفعل تقاسيم في الوجه تدلُّ إلى طبائع معيَّنة: فغالبيَّة المجرمين مثلاً وُجدَت عندهم ميِّزات خاصَّة كنتوء حادٍّ لعظام الخدود، وعيون ثاقبة، وغيرها...

ونُشير إلى أنَّ بعض خصائص الوجه تميِّز الإثنيَّات الشَّعبيَّة المتقاربة، علمًا أنَّ هذه الخصائص، كما هو بديهي، ظاهرةٌ بين الإثنيَّات المتباعدة كالبيض والسُّود. فالأنف الكبير المعكوف في الجنس الأبيض يميِّز الشُّعوب السَّاميَّة من عربٍ ويهود.

٣- قراءة خطوط الجَبهة *(Métoposcopie)*

على جبهة الفَرد تتمثَّل سبعة خطوط كحدٍّ أقصى. وإذ كان عدد كواكب منظومتنا الشَّمسيَّة سبع في العهد القديم، راقَ لبعضهم أن يرى بذلك علاقة بين الغرضَين. وعلى هذا الأساس قام بعض العرَّافين بوضع لوائح وتعاريف وعلائق لاستِشكاف طبائع البشر وتقرير طالِعهم من وراء هذه الخطوط.

٤- قراءة الغَيب والتَّنجيم *(Astrologie)*

يبدو أنَّ التَّنجيم لاقى قديمًا اهتمامًا بالغًا عند الكثير من الشُّعوب. ولقد ازدهر ازدهارًا خاصًّا عندما كانتِ الحروب أخبارًا يوميَّة؛ فقد كان الملوك والقوَّاد الكبار ينتظرون إشارة الظَّفَر من منجِّميهم قبل أن يبادروا إلى شنِّ معاركهم.

وعلى ذلك كثرت الأبحاث التي تتكلَّم على النُّجوم والكواكب والأقمار. ففي فسحة السَّماء وجدَ السَّحَرَة القوانينَ الَّتي تسيِّرُ الكون، والقوَّةَ الخفيَّةَ في مجانسة الأرضيِّ والسَّماويّ. فوضعوا لوائحَ بالعلائق الَّتي تربط مراكز تلك الكواكب وتزامنها مع مواليد البشر وحظوظهم. فأصبحت هذه الأجرام تُنبئ، بتواصلاتها وتلاقيها وتقابلها، بقَدَر الإنسان الفَرد، وبكلِّ ما يمتُّ إلى شعبٍ أو تجمُّعٍ بشريّ، وفي كلِّ الميادين. فتوقُّعـــات الأحداث الكبرى من كوارث طبيعيَّة وحروب واغتيالات وثورات وقحط

وطوافانات كانت تُستَمَدُّ من الفلك. ولا ننسى أنَّ الدِّيانات السَّماويَّة أقرَّت بالتَّنجيم. فالمَجوسُ سَحَرَةُ تنجيمٍ استدلُّوا إلى المغارة الَّتي وُلدَ فيها المسيح من نجمٍ ساطعٍ أنارَ دربَهم.

والتَّنجيم، اليومَ، هو خلاصة الدِّراسات القديمة مع ما أُلحق بها مع التَّعَصرُن. وهو يقوم على معرفة مراكز الكواكب لتحديد مدى تأثيرها على مجرى حياة الإنسان وقَدَره، وعلى طبائعه وتصرُّفاته، وعلى أحواله العاطفيَّة والمهنيَّة والماليَّة. فهل هناك حقيقة في كلِّ ذلك؟

لا شكَّ في أنَّ للأجرام الفلكيَّة تأثيرًا بعضها على البعض الآخَر، كما يمكن أن يكون لها تأثير خاصٌّ في البشر، لا بل في كلِّ فَردٍ منهم؛ إنَّما تبقى هذه التَّأثيرات خاضعة لعِلم الفيزياء الَّذي وضعَ القوانين الدَّقيقة الَّتي تربط مؤلِّفات الكون بعضها بالبعض الآخَر، ولا يظهر أنَّ هناك تأثيرات أخرى كتلك الَّتي يُمكننا أن نكتشف منها طبائع الإنسان أو التَّنبُّؤ بقَدَره. فالتَّنجيم شعوذة لا أساسَ علميًّا له. فعند تحطُّم طائرة وعلى متنها مئات المسافرين يصعب علينا أن نصدِّق أنَّ كل هؤلاء وُلدوا في التَّاريخ عَينه، وفي الدَّقيقة نفسها، ممَّا وحَّدَ قَدَرَهم في الكارثة.

ولكن، لا بدَّ لنا من أن نكرِّر ما جئنا به سابقًا من أنْ لا ضَيرَ أن يلقي الإنسان نظرة على قراءات التَّنجيم، فقد تُنعش هذه القراءات قلوبَ المولَهين، وتُلهم الضَّالِّين، وتنير الَّذين ضربَ اليأس قلوبَهم، ولو إلى حين.

٥- قراءة الغَيب القائمة على قراءة فكر الغَير

سامي طالبٌ جامعيٌّ متفوِّق؛ وإذ نال يومًا منحةً جامعيَّةً من إحدى السِّفارات، هرع إلى والدته يزفُّها الخبرَ، ويسألها إذا كان في مَقدورها أن تخمِّنَ البلدَ الَّذي سيُتابع فيه دراستَه؛ وكم كانت دهشتُه عظيمةً عندما أجابَتـــه والدتُه، بلا تردُّد، وهي تتابع

عملَها البيتيّ، ومن دون الالتفات إليه: إسبانيا. طبعًا، لم تكنِ الأمُّ على علمٍ بالوجهة الَّتي سيسلكُها وليدُها.

الأمُّ قرأت غيبًا في فكر ابنها.

قراءة فكر الغَير حقيقةٌ قائمةٌ على الحاسَّة السَّادسة. ولكن، وجبَ التَّمييز بين القارئ الحقيقيِّ والقارئ الكاذب. فالقارئ الحقيقي لا يمكنه قراءة فكر الغَير إلاَّ في حالات معيَّنة، وبظروف معقَّدة تتعلَّق بشروط تأثُّره بتموُّجات الحاسَّة السَّادسة الصَّادرة عن فكر المَقروء، وبحساسيَّة المَقروء على إرسال تموُّجاته، وبقوَّة تلك التَّموُّجات. وعند قراءة فكر الغَير لا تتمُّ قراءة الغَيب كما يُظنّ، بل الأمور الَّتي تطرقُ فكرَ المَقروء. وأمَّا القارئ الكاذب فهو فنَّانٌ مسرحيٌّ يوحي بقراءة فكر الضَّيف فيبتدع الصُّوَر والتَّخيُّلات الَّتي يراها مناسبة، ويُعطي الحجج على صحَّتها بينما هو، في الحقيقة، يمثِّلُ دورَه بمكرٍ لِهَدفٍ شخصيٍّ أو مادِّيّ.

٦- قراءة الغَيب القائمة على قراءة فكر الذَّات

تستلقي باسترخاءٍ على شرفة منزلك، وتلقي بنظرك على الغيوم المتحرِّكة ببطءٍ في كَبِد السَّماء؛ يشدُّك شكلٌ رسمَته تلك الغيوم، فلا تعود ترى سواه. الشَّكل يأخذ بالحركة لا بل بالحياة، إنَّه وجه إنسانٍ تعرفُه؛ ما به ينهار، إنَّه ينزف.

طبعًا، ليست هي الغيوم الَّتي عرضت عليك شريطًا سينمائيًّا، ولا هو واقعٌ حقيقيٌّ حدث أمام ناظرك؛ وإنَّما الشَّكل الَّذي شاهدتَه هو الَّذي أثار في فكرك سلسلةً ذاكريَّةً نشطَ العقلُ بمدِّها بما اختزن من أمور. وإذ كان هذا الشَّكل له ميزة خلقيَّة قريبة لذلك الإنسان أو على الأقل تُذكِّر بذلك الإنسان، تأثَّرت خليته في ذاكرتك، ومعها السِّلسلة المَعنيَّة. وهذه تقاطعت مع سلاسل أخرى أو مع تأثيرات تموُّجات الحاسَّة السَّادسة، فأعطت ما أعطت.

لقد قرأتَ في فكرك حادثةً غيبيَّةً قد تتحقَّق.
قراءة الغَيب القائمة على فكر الذَّات هي حقيقة. وهي تستوحي إمَّا تموُّجات الحاسَّة السَّادسة، وأمَّا نشاط الفكر اللاَّواعي. وهنا أيضًا، وجبَ التَّمييز بين القراءة الصَّادقة والقراءة الكاذبة.

قراءة فكر الذَّات الصَّادقة القائمة على الحاسَّة السَّادسة

وحيد ينتمي إلى مجموعة شبَّان جمعَهم البؤسُ والحرمانُ في نشأتهم، والحقدُ في ريعانهم. فُرض على وحيد زرع رزمة ناسفة في سيَّارة أحد المسؤولين. نشطَ فكرُه باجتِرار الأمر الَّذي أوكلَ إليه، وأخذت تصدر عنه بين الحين والآخر تموُّجات تميِّزه وتتعلَّق بما عليه فعلُه. وهذه التَّموُّجات وصلت عددًا كبيرًا من النَّاس، وفي كلِّ أنحاء العالم؛ ولكن، مَن يستطيع تلقِّيها هو مَن يكون إمَّا على معرفة بوحيد، وإمَّا على معرفة بذلك المسؤول أو على الأقلّ بسيَّارته، وإمَّا على صلة وثيقة بالأوضاع القائمة والمحيطة به.
ومَن يلتقط تلك التَّموُّجات إمَّا أن يتراءى له وحيد في وضع صعب إن كان يعرفُه، أو تتراءى له تداعيات الانفجار المخطَّط له، من دمار وتجمُّعات بشريَّة، وما شابَه ذلك، وهو، بالتَّالي، قادرٌ على التَّنبُّؤ بوقوع كارثة.

قراءة فكر الذَّات الصَّادقة القائمة على نشاط الفكر اللاَّواعي

عندما يكون الواحد منَّا مستلقيًا في قيلولة مُغمَضَ العينَين، يظنُّ نفسَه ينظر إلى سواد مُطبَق. إنَّما، إذا حدَّق بتلك الظُّلمة بصبر وتمعُّن، سيلاحظ مناطق أقلَّ سوادًا من مناطق أخرى. لا بل إنَّ بعض النواحي الَّتي تبدأ بالإضاءة سَيَراها وهي تأخذ أشكالاً غريبةً عجيبة. وإن أطال النَّظر فيها لرآها تتغيَّر ثم تتحوَّل أشياءَ مألوفةً محسوسةً تبرز وتتجسَّد بأبعادٍ ثلاثيَّة، وكأنَّ الحياة بدأت تدبُّ فيها.

وقد يرى، في ما يرى، أوجهَ بشر، فيذهب به فكره بالمشابهة إلى تمييز إنسانٍ عرفه أو سمع عنه القَدْرَ الكافي ليروح تفكيره بطريقٍ منطقيٍّ يعطي صُوَرًا لِما سيؤول إليه قَدَرُ ذلك الإنسان. وما بعض الأحلام المحقَّقة سوى نوعٍ من هذه القراءة؛ لكنَّها تختلف عنها بكون المركز مُستَرخٍ في قيلولةٍ تامَّة.

وقد يكون الواحد منا مستلقيًا في قيلولته ينظرُ إلى ما أمامه من دون أن يكون مُغمَض العينَين. وإذ يحدِّق في ما ينظر إليه، تنفر بعض النّقاط والبقع الدَّاكنة في الصُّورة الفكريَّة الَّتي تنعكس على صفحة ذاكرته، لتبدأ هذه النّقاط والبقع بتشكيل صُوَر قريبة لتلك الَّتي تختزنها خلاياه الذَّاكريَّة؛ فيتذكر إنسانًا عرفه ويروح تفكيره اللاَّواعي ينسج حوله أمورًا تبدو وكأنَّها قضايا مستقبليَّة تسمح له بالتَّنبُّؤ.

وبهذا، يصبح الفكر اللاَّواعي والنَّاشط بالتَّخيُّلات، وسيلةً قادرةً على إلقاء الضَّوء على نواحٍ من سَير الأمور المستقبليَّة. وقد تكون هذه النَّواحي مقدَّرَةَ الحدوث، وباحتمالٍ أكبر، كلَّما كان ذلك الفكر زاخرًا بمعرفة أكبر عن تلك الأمور. ولكن، تبقى تلك التَّنبُّؤات ضمن منطق الأشياء، أي متعلِّقة بتلك المعرفة، ولا يمكن أن تنفصلَ عنها. فعندما يقومُ مثلاً أحد المسؤولين في أحد البلدان بعملٍ يُعدُّ من قِبَل شريحة كبيرة من مواطنيه خيانة، فمنطق الأمور يقضي بأن مصيره سيكون الاغتيال أو الحبس أو النَّبذ.

٧- قراءة الغَيب والأحلام *(Oniromancie)*

راجع قراءة فكر الذَّات الصَّادقة القائمة على نشاط الفكر اللاَّواعي في الفِقرة السَّابقة.

٨ - قراءة الغيب عن طريق أرواح الموتى *(Nécromancie)*

يظنُّ البعض أنَّ الأرواح، بعد أن تترك أجسادها، تصبح قـــادرةً على التَّحليـــق في

الزَّمن، الماضي منه والمستقبل، وتُمكنها معرفةُ ما حصل هنا وما سيحصل هناك، وبخاصَّة لجهة الأمور المتعلِّقة بالَّذين تركَتهم من الأحبَّاء. ولذا، يعمل هذا البعض على الاتِّصال بتلك الأرواح واستيضاحها عن بعض القضايا الَّتي تهمُّه.
وأمَّا في الحقيقة، فلا إفادة من التَّوضيح بأنَّ هذا الظنَّ هو في غير مكانه، وأنَّ هذه الأرواح لا يُمكن الاتِّصال بها لأنَّها غير موجودة بالنِّسبة إلينا.

٩ – قراءة الغَيب وعلم النَّفس

في علم النَّفس نوعٌ من قراءة الماضي وتوقُّعات المستقبل في فكر الغَير (المريض)، وهو قائمٌ على أُسُس علمية تجريبيَّة لفهم أسباب تصرُّفات الفَرد غير العاديَّة، وذلك بنَبش ماضيه لمعالجة حاضره استعدادًا لرَسم مستقبله.

١٠– قراءة الغَيب والدِّين – التَّنبُّؤ

إستعان الدِّين، لتوطيد ركائزه، بالأنبياء والرُّسُل والمُلهَمين من ربِّ العالمين. والعديد من هؤلاء، إن لم يكن كلّهم، استخدموا السِّحر لإثبات رسالتهم: فموسى شقَّ مياه البحر بعصاه السِّحريَّة، والمسيح حوَّل الماءَ خمرةً (لا ننسى أنَّ السِّحرَ يُطلَقُ على الوقائع الخارقة الَّتي يصعبُ إيجادُ تفسيرٍ لها). لكنَّ بعض الأنبياء لم يكن محظوظًا، فنُعتَ بالشَّيطانيّ، وحُرق وانطفأ ذكراه؛ والبعض الآخر أتى متأخِّرًا في زمنٍ كانت الشُّعوب قد وعَت على ذاتها، وتعلَّمت، وأصبحت قادرةً على التَّمييز بين النَّبيِّ المُرسَل والسَّاحر المُشعوذ، فنوستراداموس يقول إنَّ الوحيَ الإلهيَّ هو الذي ألهمَه بمواد "مئويَّاته"، وهي نبؤات مشفَّرة تعطي تواريخ ونتائج أحداث هامَّة ستجري على الكرة الأرضيَّة إبتداءً من زمانه حتَّى سنة ٣٧٩٧ الميلاديَّة.
ولا بدَّ من أن نشير إلى أنَّ الدِّيانات التَّوحيديَّة تنبَّأت بالغَيب البعيد، نعني بالقيامة والدَّينونة عند استِتباب حكم الخير النِّهائي وعودة المخلِّص المُنتَظَر.

الفصلُ الثاني عشر
الخلود
الحياة بعد الموت
التقمُّص

١- الخلود

كلُّنا قلقون، كلُّنا نتوق لمعرفة ما ستَؤول إليه الأمورُ في الغد، وبخاصَّةٍ في الغد البعيد، عند الموت. نهابُ الموت، نخافُ أن نتركَ هذه الدُّنيا؛ ومتى تركناها: إلى أين؟

نحن الوجود؛ والموت هو العَدَم. يصعبُ علينا استيعابُ ذلك؛ همُّنا أن نبقى وأن نخلد. ولكن ما هو الخلود؟

الخلود استمرار الوجود، استمرار الإنسان، استمرار الشَّيء، استمرار مجرَّد فكرة.

الأديان السَّماوية قدَّمت لنا بعض الحلِّ بابتداع الحياة الثَّانية والخلود في الآخِرَة. ولكن، هذا لم يكن كافيًا: فنحن نريد أن نعيش ونعيش في هذه الدُّنيا الَّتي اختبرناها واعتدنا عليها وعلى أن نلتقي فيها أحبَّاءَنا، وأن نتألَّم.

الأمل الَّذي أعطونا إيَّاه كدواءٍ لقلقنا وكحلمٍ بحياةٍ لا موتَ فيها لم يدخل إلاَّ في نفوس بعض الأتقياء، بعض الشُّهداء.

الدِّين، وما الدِّين؟ الطَّبيعة بنفسها قدَّمت لنا بعض الحلّ. فَقِوانا تضعف مع السِّنّ. وقبل الموت لا نعود نقوى حتَّى على التَّفكير به. يأتينا من دون دعوة. خلايانا الذَّاكريَّة تتفكَّك. يصبح عقلنا سابحًا في العَدَم مقدِّمةً لسباحتنا ككلّ في العَدَم. ولكنَّ هذا لا يكفينا أيضًا، فنحن لا نريد أن نصلَ هذه الشَّيخوخةَ اللَّعينة.

وقد يكون الحلُّ باقيًا هناك، في إحدى الزَّوايا الخفيَّة، ينتظر أحدَنا ليكتشفَه ويعلنَ له عن نفسه. ولكنَّ الإنسان مشغول بأشياء كثيرة، ولا مَن يُبالي. أوَلَيس الطِّبُّ هو أوَّلُ الطَّريق؟

أوَلَيس الطِّبُّ ما أطال ويطيل عمر الكثيرين. الطِّبُّ ليس سحرًا بل عِلمٌ وأبحاثٌ وتعبٌ واكتشاف.

٢- خطوة أولى

نظر البعض، في القديم، إلى الموت من جانبٍ آخر: الموتُ بالنِّسبة إليه ليس نهاية المطاف بل مرحلة؛ مرحلة استراحة مؤقَّتة للرُّوح، تمامًا كالنَّوم الذي هو استراحة مؤقَّتة للجسد. وبداعي سرعة عودة الحياة إلى ذلك الجسد، عمدَ إلى تحنيطه ووضعه في حالة استعداد لحياة ثانية. فأقام بالقرب منه بعض ما يخصُّه من ملابس وحلًى، وما تيسَّر ممَّا اعتاد عليه في حياته الأولى.

عودة الحياة؛ أيُّ حياة ستعود؟

٣- التَّقمُّص

عند ابتداع الرُّوح، وجد آخرون حلاًّ آخَر: الجسد يفنى، وأمَّا الرُّوحُ فلا، ويبقى الواحدُ منَّا خالدًا بها.

التَّقمُّص نوعٌ من الحياة بعد الموت، مع اختلاف بسيط يكمنُ في أنَّ الرُّوح لا تعود إلى الجسد عَينه بل إلى جسد كائن آخر. التَّقمُّص انتقالُ الرُّوح من جسد مَيْت إلى جسد كائن في طَور الولادة. وإذا لم يكن هناك من جسد حاضر فلا بأس؛ فالرُّوح تنتظر، والوقتُ لا يعني لها شيئًا. ولقد أكَّد العديد من النَّاس أنَّ الأرواح الَّتي عادت إلى أجساد أطفال سمحت لهم بالتَّكلُّم في سنٍّ مبكرة جدًّا عن أسمائهم السَّابقة والتَّعرُّف، حتَّى، على الأمكنة التي اعتادوا العيش في ربوعها.

فمَن آمن بالتَّقمُّص أُعطيَ القوَّةَ على قهر الموت. وأمَّا نحن، وانسجامًا مع ما ذكرنا سابقًا بأنَّ الرُّوح غير موجودة، فيبقى التَّقمُّص، لدينا، خيالاً يبلسمُ قلقَنا.

٤- الحياة بعد الموت

هل هناك حياة بعد الموت؟

نعم، هناك مَن يظنُّ بوجود حياةٍ بعد الموت؛ ولكن، من دون تحديدٍ لتلك الحياة خوفًا على قتل الأمل بها. الأديان السَّماويَّة أعطتنا إجابتها بالحياة الأبديَّة للرُّوح. والَّذين آمنوا بالتَّقمُّص أعطونا إجابتهم بالتَّقمُّص. وأمَّا الآخرون فيؤكِّدون أنَّ الحياة بعد الموت هي حياةٌ بالأجساد نفسها؛ وقد تأكَّدوا من ذلك عندما كثرت قصص أناس شارفوا على الموت، أو، كما يقولون، ماتوا لوقتٍ قصير، فتراءَت لهم أنفاقٌ طويلة عبروها إلى حيث متَّعوا نظرهم بمشاهدة أقرباء وأحبَّاء أموات، قبل أن يعودوا، هم، إلى الحياة، ويستفيقوا من الموت.

٥- الخلود عند السَّحَرَة

السَّحَرَةُ، أيضًا، فكَّروا بالخلود؛ أوَليس الخلود من حقِّهم؟ أوَليسوا هم نخبة البشر وقوَّاده؟ في أن يخلدوا لهم الحقّ، وكلُّ الحقّ.

لقد حاول الكثير منهم إيجاد التَّركيبة السِّحريَّة الَّتي تعطيهم الخلود. وعندما فشلوا حاولوا إيجاد التَّركيبة السِّحريَّة الَّتي، إن لم تعطِهم الخلود، فعلى الأقلّ، تطيل أعمارَهم. حتَّى إنَّ بعضهم فكَّر في العودة إلى الشَّباب بإبدال جسده المترهِّل بجسد فتًى في عنفوانه، وابتكر لذلك الطُّرق والوسائل.

ومنهم مَن حاول الخلود على المستوى الفكريِّ إبَّان وجوده حيًّا على هذه الفانية. فتعالى على الظَّواهر الحياتيَّة، وعمل على تنقية القلب والرُّوح بكَبح المشاعر والخلجات. وخدَّر الحواسَّ ليسموَ فوق المادَّة، إذ، بذلك، يتَّحد بالجبَّار السَّرمديّ، فيُعطيه الحياة الأبديَّة.

٦- الحقيقة في الحياة الثانية

الحياة خاصِّيَّةُ الكائنات الحيوانيَّة والنَّباتيَّة الَّتي تميِّزها عن الجمـــاد؛ قوامها الولادة

والموت، التَّوالد والنُّموّ، الحركة والتَّغذية. الحياة، إذاً، تغيير؛ والتَّغيير من ميِّزات المادَّة. الحياة في المادَّة، ولا حياة خارج المادَّة.

عندما يموت الإنسان تنتهي حياته، ولا يمكن بعد ذلك أن يعودَ إلى الحياة. فلا مادَّة في دنيا الآخرة، ولا حياة بعد الموت.

ثمَّ، إذا قبلنا بوجود الرُّوح اللاَّماديِّ، فهذه الرُّوح لا معنى لها خارج الجسد الَّذي وُجدَت لأجله. عندما ينتهي ذلك الجسد، تنتهي الرُّوح معه. وكلمة الرُّوح الَّتي نستخدمها في أحاديثنا اليوميَّة، إنَّما هي فكرة عن المتوفَّى في ذاكرة الأحياء الَّذين عرفوه؛ تتجسَّد بالكلام عليه عندما يستذكرونه بعطائه، بعنفوانه، بأعماله، بكرمه، أو بغير ذلك من الأمور.

وأمَّا الأنفاق التي رآها بعض الَّذين شارفوا على الموت، فليست الرُّوح الَّتي رأتها، فالرُّوح لا ترى. وهذه الأنفاق إنَّما هي انعكاسات الفكر لتأثيرات العضلات الدَّائريَّة المحيطة بالعين، والَّتي تنشط في فترة التَّشنُّج أو التَّأثير اللاَّواعي.

وأمَّا الحقيقة فهي في العَدَم. نعم، في العَدَم. ولكن، ما العَدَم؟

العَدَم حيث لا مادَّة، وحيث لا تأثير، ولا وجود.

أيمكنُ أن يكون العَدَمُ عالمًا آخر لا نتأثَّر به ولا يتأثَّر بنا؟ أيمكن أن يكون الموتُ انتقالَنا من عالمٍ عرفناه إلى عالمٍ ملاصقٍ لا نزال نجهلُه، ونحن في انتظار استِجلاء أمره؟

الفصلُ الثالث عشر
في الغرابة والقدرة العجائبيَّة
الإيمـــان

الصَّواعد والهوابط المتكلِّسة في المغاور، القوس القزح، مواجهة الأبطال الموتَ، الشفاءات العجائبيَّة، كلُّها أمثلةٌ من الغرابة.
الغرابة نوعٌ من السِّحر يقوم به ساحرٌ غير بشريّ: الطَّبيعة أو الظُّروف القائمة. منها ما يدور حول الجماد، ومنها ما يتمحوَرُ حول الإنسان.
ونحن، في هذا الفصل، سنقصرُ بحثَنا على الأمور الغريبة المتعلِّقة بالإنسان فقط.

١- وسائل وظروف تساعدُ على تحسين الأداء

هناك وسائل وظروف تحفزُ بعض النَّاس على القيام بأعمال وأمور لا يمكنُهم القيام بها كما يجب في غيابها.
الاحتفالات والموسيقى والرَّقص أمورٌ تساعد البعض على مواجهة الصُّعوبات، ومن دونها يكون التَّردُّد أو الفشل سيِّد الموقف. فعلى قرع الطُّبول والتَّصفيق والهتاف يسيرُ الرَّاقي على الجمر الأحمر؛ وقد لا يجرؤ على ذلك من دون ذاك الحضور وذلك الضَّجيج.
بعض الأدباء المعاصرين لا تأتيهم قريحة الإنتاج إلاَّ واللّفافة في أيديهم.
بعض ربَّات البيوت لا يُجِدنَ القيام بترتيب بيوتهنَّ إلاَّ إذا كنَّ وحيدات.

٢- حالات وظروف خارئة تُنتج قدراتٍ غير متوقَّعَة

في ظروف طارئة ودقيقة قد يُقدم الإنسان على بعض الأمور الَّتي يعصى عليه القيامُ بها في الظُّروف العاديَّة.
فيُحكى أنَّ أمًّا استطاعت رفع سيَّارة كادت أن تسحقَ وليدَها. فهل كان بإمكانها القيام بذلك في ظروف عاديَّة؟

يستبسلُ بعض الجنود الَّذين يُنعتون بالجبناء، في الحرب، عندما يُقتلُ أحدُ زملائهم بالقرب منهم، أو عندما يتراءى لهم شبح الموت.

٣- الشِّفاء العجائبيّ

يُحكى أن كثيرًا من المرضى أو ذوي المشاكل الصِّحِّيَّة الَّذين يئِسوا من براء حالتهم بالطُّرق العاديَّة قد خرجوا مُعافَين بعد زيارتهم معابد أو مزارات تخلَّلتها صلوات وابتهالات.

الصُّوَر والطُّقوس الدِّينيَّة قد تعطي مردودًا غيرَ متوقَّع؛ فهي تحفزُ المريضَ على الإيمان بذاته وعلى الرُّجوع إلى نفسه.

٤- حقيقة الغرابة: دور الذَّاكرة الغريزيَّة

الأمثلة السَّابقة تدخل في الغرابة على الرَّغم من مصادرها وحقولها المختلفة؛ فتفاسيرها تعود كلُّها إلى خانة واحدة: الذَّاكرة الغريزيَّة.

١- ردُّ الفعل الغريزيّ، أو الفكر شبه الواعي

الفكر شبه الواعي هو الحالة الَّتي يتخلَّى فيها المركز عن دوره لحساب الذَّاكرة الغريزيَّة، أو، على الأقلّ، يتقاسم فيه هذا الدَّور مع تلك الذَّاكرة.

ففي بعض الحالات الحرجة الَّتي تتطلَّب سرعةً في أخذ القرار، يتعطَّل عمل المركز عفويًّا، فتقوم الذَّاكرة الغريزيَّة بدوره. فأن يعرفَ إنسانٌ مثلاً أنَّ هناك خطرًا يتربَّصه هو دخول المركز على الخطّ ليتبيَّنَ المُعطيات المحيطة به، ثمَّ ليأخذ قرارَه. وقد يتخلَّل هذا العمل بعض التَّردُّد؛ وهذا ما يأخذ وقتًا ثمينًا. عندها، يتوقَّف التَّفكير الواعي عفويًّا، وتقوم الذَّاكرة الغريزيَّة بأخذ القرار الملائم. فهي لا تُعطي الأحاسيسَ انتباهًا، وردُّ فعلها سريع (إستبسال الجنديِّ الجبان).

٢- الإيحاء الذَّاتيّ

الإيحاء الذَّاتيّ، ويُقال له التَّأمُّل الذَّاتيّ، أو التَّنويم المغناطيسيّ الذَّاتيّ، هو إيحاء يكون مصدره الإنسان المَعنيُّ نفسُه. وهو ما يكون عادةً ردَّ فعل هذا الإنسان على حالة حرجة يعاني منها أو قلق يساوره.

كلُّ إنسان قادرٌ مبدئيًّا على القيام بإيحاء ذاتيّ، إنَّما تنقص الكثيرين مبادئه وأساليبه، لذا يبقى مقتصَرًا على أقلِّيَّة تمتهنُه. ولكن، قد يكتشفه الفرد بنفسه من دون إدراك.

قوام الإيحاء الذَّاتيِّ التَّركيزُ العقليُّ الذَّاتيُّ على المعضلة الَّتي يواجهها الإنسان من دون إعارة الأشياء الأخرى الَّتي تدور من حوله أيَّ انتباه. وأمَّا نتيجته فتكون عادةً إيجابيَّةً، وعلى نحوٍ غير متوقَّع. فكأنَّ للمركز، فوق دوره كمحرِّكٍ الجسمَ، قوَّةً على اكتشاف مكامن الضَّعف داخليًّا في هذا الجسم، والعمل على إزالة أسبابه أو نبش الظُّروف الصَّعبة خارجيًّا (خارج الجسم)، والعمل على تفاديها بإصدار تموُّجات الحاسَّة السَّادسة.

فبالضَّغط على بعض الغدد الإفرازيَّة، وبالعمل على تناسقها، قد يبرأ مريضٌ من دائه، أو قَلِقٌ من وسواسه، أو مضطربٌ من حالته (الشِّفاء العجائبيّ)؛ وبالحاسَّة السَّادسة قد يجد مَن يساعدُه في محنته، ويمدُّ له يدَ العون.

والإيحاء الذَّاتيُّ يسمح لبعض مَن تمرَّس فيه تقديمَ أداء أبلغ في حرفته أو مهنته. وقد أُدخلت حديثًا تقنيَّة الإيحاء الذَّاتيِّ في مجالات التَّدريب التِّقنيِّ لمهامَّ تتطلَّب مجهودًا جسديًّا كبيرًا، وبخاصَّةٍ في الحقل الرِّياضيّ، أو مجهودًا فكريًّا في المهامِّ الخطرة الَّتي تتطلَّب دقَّةً وبراعةً (قيادة السَّيَّارات السَّريعة أو الطَّائرات).

كما أنَّه تأسَّست في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة جمعيَّات طبِّيَّة لمعالجة بعض الأمراض بالإيحاء الذَّاتيّ، وقد نجحت غالبًا على نحوٍ غير مألوف.

٣- التَّنويم المغناطيسيّ

النَّوم حاجةٌ طبيعيَّةٌ لراحة الجسد والنَّفس. عنده ينقطع الاتصال في ما بين المركز والذَّاكرة الإدراكيَّة، فلا يعود يتأثَّر بتفاعلاتها؛ فتتولَّى الذَّاكرة الغريزيَّة مهامَّه، وتصبح تصرُّفاته لاواعية. فالنَّائم الَّذي يبدي ردود فعل حركيَّة أو كلاميَّة أو غيرها، إنَّما يقوم بذلك عن طريق الذَّاكرة الغريزيَّة.

و"النَّوم" المغناطيسيُّ هو حالةُ استِرخاءٍ جسديٍّ مُصطَنَع شبيهة بحالة النَّوم الطَّبيعيَّة، وإنَّما تقوم على شلِّ نشاط المركز بإشغاله بشريحة معيَّنة من الذَّاكرة الإدراكيَّة، عادةً ما تكون متعلِّقة بالماضي البعيد. فلا يعود بإمكانه الاتِّصال بباقي الشَّرائح؛ فتتولَّى الذَّاكرة الغريزيَّة مسؤوليَّة هذه الفئة. فيبقى بذلك "النائم" على اتِّصال بالعالم الخارجيّ، ويتفاعل معه كلاميًّا وحركيًّا، ولكن، من دون وعيٍ منه.

ويأتي التَّنويم المغناطيسيُّ إمَّا من الإنسان على ذاته، وإمَّا من الغير الَّذي يقوم به عن طريق جملة إيحاءات رتيبة. ويُقال إنَّ بعض مَن تمرَّس في هذا الميدان يستطيع أن يخلق عند أحد مرضاه حروقًا لمجرَّد الإيحاء له أنَّ قطعة الثَّلج الَّتي لامسته هي قطعة معدنيَّة مُلتهبَة.

فهل هذا بعيدٌ عن السَّحر؟

٤- عندما تصبح العادة غريزة

أن يعتادَ الإنسان على أمر معيَّن هو أن يقوم بهذا الأمر مرَّاتٍ عديدةً ولزمنٍ ليس بقصير. والعادة تصبح هذا "الأمر" الَّذي يقوم به الإنسان مرَّاتٍ عديدة.

وعند العادة لا يعود الفكر يولي "الأمر" اهتمامًا؛ فتمسي العادة وكأنَّها في عهدة الذَّاكرة الغريزيَّة.

والإنسان الذي اعتاد القيام بأمرٍ ما، يصبح، مع هذا الأمر بالذَّات، كآلة تحرِّكها الغريزة من دون وعي؛ ولَقامَ بما عليه بمهارة تامَّة (من مِثل ربَّات البيوت والأدباء

المعاصرين). حتَّى إذا ما طرأ واقع جديد في أثناء القيام بهذا الأمر، تعطَّلت الآلة وعاد "الأمر" مؤقَّتًا إلى عهدة الفكر.

٥- الإيمان

يتخلَّل التَّفكير الواعي عند الإنسان شعورٌ وأحاسيسُ تميِّزه عن باقي الكائنات الحيَّة. وهذه الأحاسيس تُدخل القلق والخوف في نفسه (أي إنَّها تعرقلُ التَّفكير)، ممَّا يحدوه إلى التَّردُّد فالعدول عن القيام بالأمر الَّذي يواجهه، أو على أقلِّ تقدير إلى إعاقة أخذ القرار؛ فتتشتَّت بذلك قواه العقليَّة والجسديَّة. ولكن، في الحالات الدَّقيقة الَّتي يعتريها خوف كبير أو قلق على المصير، تجتمع الغريزة إلى المركز لأخذ القرار الاستثنائيّ، وهذا الاجتماع يولِّد لدى الإنسان قدرةً على القيام بأمور تُنعَت بالغرابة.

الإيمان نوعٌ من الإيحاء الذَّاتيّ، ينشط فيه الفكر بمشاركة الذَّاكرة الغريزيَّة بالتَّركيز على الذَّات من خلال عنصر خارجيٍّ يعكس عليه الفكر نفسَه.

والعنصر الخارجيُّ هذا قد يكون شيئًا ماديًّا أو مجرَّد فكرة طارئة.

فالشِّفاء العجائبيُّ لا يتأتَّى من الأعالي، ولا من الملائكة والرُّسُل، بل بالرجوع إلى الذَّات وإثارة القدرات الغريزيَّة الَّتي قد تبلسم الأوجاع وتداوي بعض الأمراض. وما ظروف الصَّلاة والابتهال إلاَّ مادَّة تحفزُ الإنسان إلى الرُّجوع إلى الذَّات، إلى الإيمان.

"آمن بالحجر تشفى".

ولكن، لنبقَ واقعيِّين، ولا نذهبَنَّ بعيدًا في تفكيرنا واستنتاجاتنا. فهذه القدرة الشِّفائيَّة لا يمكن أن تقفزَ فوق القوانين الطَّبيعيَّة وتأتيَ بالمعجزات. فالمعجزات، بمفهومها المعروف، لا وجودَ لها.

الفصلُ الرَّابع عشر
الطبابة والسِّحر

لن نتطرَّق في هذا الفصل إلى الطّبِّ العلميِّ السَّليم القائم على تشخيص المرض، فمعالجته بالطُّرق المعروفة الَّتي توصَّل إليها الإنسان بسلسلة طويلة من الأبحاث المُضنِية، ولا إلى المعالجة بالوخز بالإبر، فقد تكون لها أُسُسها العلميَّة؛ فلا صلة لهما بالسِّحر، على الرَّغم من أنَّ بعض منجزاتهما يمكنُ وصفُها بالسِّحر أحيانًا.

١- الطّبُّ الرُّوحانيّ

عند المسلمين، الطّبُّ الرُّوحانيُّ هو العلاج بالقرآن، بالتَّنزيل والتَّعذيم وذكر آياتٍ من القرآن الكريم. وعند النَّصارى هو رفع النّذورات والتَّضرع والابتهال إلى الله والرُّسُل والقدِّيسين لطلب العون والشّفاء؛ وقد أفردوا لكلِّ قدِّيسٍ صلاةً خاصَّة. أيُّها المؤمن، إذا كان الموت دعوةَ الرَّب لك للالتحاق به في عليائه، فلِمَ الخوف؟

٢- الطّبُّ باللَّمس

يظنُّ البعض أنَّ هناك سيَّالاً مغناطيسيًّا له طاقة شفائيَّة عجائبيَّة يجري في الإنسان وما حوله، حتَّى إنَّ هذا البعض أكَّد خضوعَه للقياس العِلميّ (جماعات الشَّافين). والسَّيَّال ينساب من أنامل الشَّافي ليدخلَ جسمَ المريض موضع الألم، فيبرأ.

٣- الطّبُّ الشَّرقيّ

الطّبُّ الشَّرقيّ، ويجبُ تمييزُه عن الطّبِّ الرُّوحانيّ، يفترض أنَّ الإنسان وَحدةٌ متكاملةٌ قائمةٌ على التَّناغم والاتِّزان بين كلِّ أعضاء الجسم؛ والمرض إنَّما هو فقدان تلك الوَحدة التَّناغميَّة المُتَأتِّى من نفس المريض. فهذه تكون قد فقدت السَّيطرة على الجسد فقوَّضت اتِّزانه. وأمَّا أسبابُ تخلِّي النَّفس عن جسدها فعديدة، منها الكآبة والأسى، ومنها الوحدة وخيبة الأمل والفشل، ومنها الجشع والطَّمع.

وأمَّا المعالجة فتقوم على الإيحاء الذَّاتيّ (أنظُر هذا المفهوم في الفصل السَّابق)، حتَّى إذا ما عاد الإنسان إلى نفسه، استقامَ التَّوازن وزالَ المرض.

٤- التَّداوي بالأعشاب

لا ينكر أحدٌ مفعولَ بعض المحضَّرات النَّباتيَّة وقوَّتَها على الإنسان: من تهيُّج إلى تبنيج وهلوسة... إلى الموت.

وهناك منها ما يُنصَح به لمعالجة بعض العوارض الصِّحِّيَّة والأمراض؛ إنَّما وجب الاتِّقاء من المُشعوذين الَّذين يحضِّرون بعض العقاقير من دون أيِّ أُسُس علميَّة أو رقابة طبِّيَّة تُثبت سلامتَها.

٥- التَّنويم المغناطيسيّ

يُستخدم التَّنويم المغناطيسيّ (أنظُر هذا المفهوم في الفصل السَّابق) في الطِّبِّ بدل التَّبنيج الكيميائيّ، وفي الحالات البسيطة، إذ عنده لا يعود الإنسانُ يشعرُ بالألم.

واليومَ، لا يزال هذا التَّنويم يُستخدم في بعض هذه الحالات، كما في معالجات المشاكل النَّفسيَّة عندما يحاول أطبَّاء النَّفس استدراج النَّائم على إلقاء الضَّوء على بعض الأحداث السَّابقة الَّتي خضع لها والَّتي لها صلة بحالته.

٦ - الإيحاء الذَّاتيّ

(أنظُر هذا المفهوم في الفصل السَّابق)

٧- الشِّفاء العجائبيّ

(أنظُر هذا المفهوم في الفصل السَّابق)

٨- في الحقيقة

لا الابتهال إلى الله، ولا استحضار الملائكة، ولا الصَّلاة للقدِّيسين هي طرق معالجة طبِّيَّة صحيحة؛ إنَّما هذه قد تحفزُ الفردَ على الإيمان بذاته، وهذا الإيمان هو بداية الإبلال، إذ إنَّ إرادة الشِّفاء هي الخطوة الأولى في الطَّريق الصَّحيح. ولكن، لا نذهبنَّ بعيدًا في الاعتقاد أنَّ كلَّ آمالنا قد تصبح حقائق إذا اتَّبعنا هذا التَّركيزَ الفكريَّ على مصدر العلَّة، وتركنا العملَ الطِّبِّيَّ الصَّحيح.

العجائب غير صحيحة؛ فكلُّ حادثة لها مبرِّراتها وأسبابها، والقدرة على الشِّفاء لا تكتمل إلاَّ إذا كانت شروطها مكتملة، أي أن يكون الشِّفاء ممكنًا، وأن تكون إرادة المريض للإبلال قائمة. فلن نتوقَّع مثلاً ممَّن قُطعت يده أن تنبتَ هذه اليد من جديد في حال آمَنَ بذلك.

الخاتمة

لا غروَ في أنَّ السِّحر يَسري كعنصرٍ مُتَخَفٍّ، ويتسلَّلُ إلى الكثير من الميادين والمجالات الَّتي تظهرُ وكأنَّها بعيدة عنه: فمعالجة المرض والألم تستقطبُ السِّحر كما تستقطبُ الطِّبَّ والإيمان؛ وميادينُ العلم والأدب والفلسفة القادمة من ينابيع مختلفة قد تجد السَّنَد أحيانًا في السِّحر، فهذا يلهم الأدباء بموادَّ لا تنضب، والفلاسفة بمواضيع جديدة يغوصون فيها لحلِّ مشاكلها بعقلهم الخلاَّق، والعلماء بظواهر قد تساعدهم على ابتِكار نظريَّات جديدة.

فعلم الفلك الدَّقيق إنَّما كان أساسُه السِّحر؛ والأديان قامت على أطلاله.

والإبداع في كلِّ الميادين لا يقوم إلاَّ على التَّنوُّع؛ وكلُّ نظريَّة تأتي من هنا أو هناك، لا بدَّ من أن تُغني العقلَ البشريَّ، وتفتحُ له آفاقًا جديدة. والسِّحرُ، في هذا المجال، أغنى بتاريخه وبتنوُّعه خلجاتِ الإنسانيَّة، وأعطى الكثير من الأدباء مادَّةً دَسِمَةً لا يزال تأثيرُها قائمًا إلى يومنا هذا. ونحن، إذ ندحض الكثير من ركائزه ووقائعه، ما لنا إلاَّ أن نغضَّ الطَّرفَ عن قيامه بيننا بمعظم أشكاله.

وأخيرًا، علينا ألاَّ ننسى أنَّ السِّحر الأكبر قابعٌ في ذواتنا، ونحن لا نعيرُه اهتمامًا. فلنَنْكَبَّ عليه ونكشفْ عنه ولنحاولِ استغلالَه لخَير الإنسان والبشريَّة.

المحتويات

مدخَل..... ٤
المقدِّمة..... ٥
الفصل الأوَّل: في المَوجودات..... ٧
الفصل الثَّاني: في الفكر والعقل والإدراك..... ١٥
الفصل الثَّالث: الحاسَّة السَّادسة..... ٢٩
الفصل الرَّابع: في الحقيقة والخيال..... ٣٥
الفصل الخامس: الوحي والإيحاء والإلهام..... ٤٣
الفصل السَّادس: الأحلام..... ٤٩
الفصل السَّابع: في السِّحر والسَّحَرَة..... ٥٩
الفصل الثَّامن: تحضير الأرواح..... ٧٣
الفصل التَّاسع: الشَّعوذة..... ٨١
الفصل العاشر: السِّحر الشَّيطانيّ..... ٩٩
الفصل الحادي عشر: قراءة الغَيب والطَّالِع..... ١٠٩
الفصل الثَّاني عشر: الخلود، الحياة بعد الموت، التَّقمُّص..... ١٢٣
الفصل الثَّالث عشر: في الغرابة والقدرة العجائبيَّة – الإيمان..... ١٢٩
الفصل الرَّابع عشر: الطِّبابة والسِّحر..... ١٣٧
الخاتمة..... ١٤١

الثقافة بالمَجَّان
سلسلة كتب أدبيَّة مجَّانيَّة أسَّسَها *ناجي نعمان* عامَ ١٩٩١ وما زالَ يُشرفُ عليها
Ath-Thaqafa bil Majjan
Série littéraire gratuite établie et dirigée depuis 1991 par
Free of charge literary series established and directed since 1991 by
Serie literaria gratuita establecida y dirigida desde 1991 por
Naji Naaman

Dr. Fares Eid

Al-HAQIQA wal KHAYAL
Fis-Sihri wa Qira'atil Ghaybi wa Tahdhiril-Arwah
الحقيقة والخيال
في السِّحر وقراءة الغيب وتحضير الأرواح

Novembre 2008
© ***Tous droits réservés* – All rights reserved – *Todos los derechos reservados*** - ألحقوقُ مَحفوظة
Maison Naaman pour la Culture & www.najinaaman.org